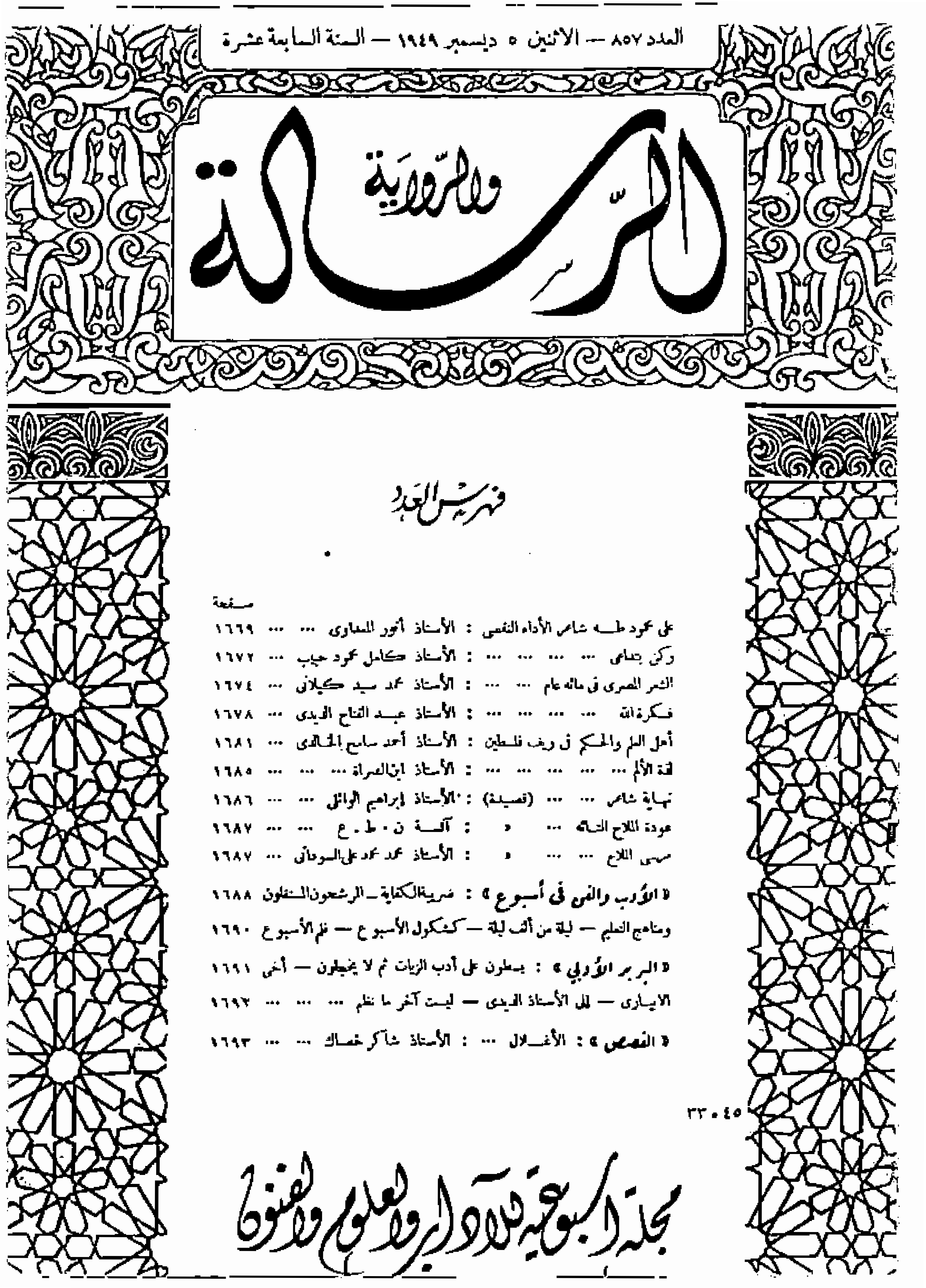


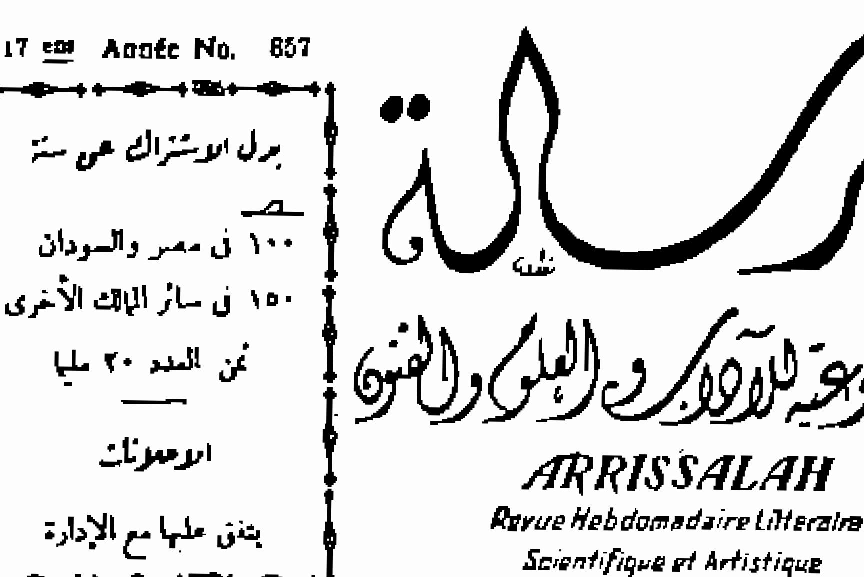
العدد ٨٥٧ — الاثنين ٥ ديسمبر ١٩٤٩ — السنة السابعة عشرة

الرسالة والرواية

فهرس العدد

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

17e Année No. 857 | Lundi — 5 — 12 — 1949



بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العدد ٨٥٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٤ من شهر صفر سنة ١٣٦٩ — ٥ ديسمبر سنة ١٩٤٩ — السنة السابعة عشرة »

على محمود طه

شاعر الأداء النفسي

للأستاذ أنور المعداوي

الشاعر الذى أقدمه إليك فى هذه الصفحات ، كان أشبه بكتاب مفتوح . أستطيع أن أقول لك وأنا مطمئن ، إننى قد قرأته كله — شعره على ضوء حياته ، وحياته على ضوء شعره ، ناحيتان تؤلفان هذا الكتاب الذى قرأته ، وعشت بين سطوره ، وخرجت من هذه السطور بآراء عرضتها على الذاكرة فما اعترضت وعلى الضمير فما أنكر ، وعلى موازين النقد فما اختلفت مع أصوله كما أفهمها ومناهجه .

درست حياة على طه النفسية ، ودرست آثاره الفنية … درستهما على طريقتى التى أومن بها وأدعو إليها كلما حاولت أن أكتب عن أصحاب المواهب أو كلما حاول غيرى أن يكتب عنهم : مفتاح الشخصية الإنسانية أولا ، ومفتاح الشخصية الأدبية ثانيا والربط بعد ذلك بين الشخصيتين لننفذ إلى أعماق الحقيقة فى الحياة والفن ومدى التجاوب بينهما منعكسا على صفحة الشعور المعبر عنه فى كلمات .

يستطيع الذين لم يعرفوا على طه ولم يطلعوا على دخائل نفسه وآفاق حياته ، يستطيع هؤلاء إذا لم ينتزعوا عن الألفاظ أثوابها النفسية ، أو يجردوا الأخيلة من ظلالها المعنوية ، أو يفرقوا بين الصور وبين وشائج اللحم والدم — يستطيعون إذا لم يلجأوا إلى شئ من هذا كله أن يعرفوه حق المعرفة من خلال شعره ! لقد كان شعره مرآة صادقة لهذا الوجود الذى أحاط به ، لأنه كان إنسانا صادقا فى صحبته لتلك المرآة … لم يحاول يوما أن يقف أمامها بوجه غير وجهه ، ولم يحاول يوما أن يلقاها بملامح لونتها المساحيق أو اختفت حقيقتها وراء الأقنعة ! وما أكثر الذين تخدعك مراياهم من أصحاب الفن حين تفتش فيها عن وجوههم — هؤلاء لو قدر مالى يوما أن أكتب عنهم لكشفت عن أثر للمساحيق فى تشويه معانى الحق والخير والجمال ، وفى خداع الذين يريدون أن يستخلصوا من السطور وحدها رأيا وعقيدة ! هنا أستطيع أن أقول لهم مثلا إن فلانا الكاتب أو الشاعر أو القصاص ، قد قدم إليكم صورته من خلال فنه كما تريد الثانية فى عالمكم لا كما تريد الواقعية فى عالمه … إياكم أن تدرسوه من صورته المقروءة ، بل ادرسوه بين صورته المنظورة ، ثم قارنوا بينهما لتضعوا أيديكم على مدى التفاوت أو التوافق بين الصورتين ! تلك هى الأمانة العلمية فى الدراسة النقدية ، كلما حاول كاتب التراجم أو دارس الشخصيات أن يسلط أضواءه على الأثر الفنى مرتبطا بحياة صاحبه !

على طه لم يكن واحدا من أصحاب المساحيق ، ولكنه كان شاعرا يريد أن يجد نفسه وأن يجده الناس ؛ ومن هنا لم يكذب أبدا على المرآة … مرآته الصافية التى تعرضه أمام ناظريك بسماته

التي لا تكلف فيها ولا رياء ! إنه يمثل الوضوح في الفن ، وقيمة الوضوح في الفن هو أنه ... هو أنه يتيح للدارسين أن يطمئنوا إلى مواقع أقدامهم كلما قطعوا مرحلة من مراحل الطريق ... لا غموض في المقدمات يدعو إلى الشك في النتائج ، ولا ضباب على سطح المنظار يحول دون الرؤية إذا التمستها العيون وليس معنى هذا أن شعر على طه يريح دارسيه ومقوميه ، كلا ، فما كانت هذه الحياة العريضة ولا أقول الطويلة ، ما كانت هذه الحياة في ألوانها المختلفة وطعومها المتباينة ، إلا ميدانا رحيب الجنبات لمن يرهق أنفاس السائرين في فجاجه ودروبه ... إن على طه لم يكن طاقة محدودة تسبر غورها في بضع لمسات أو لمحات ولكنه كان طاقة تشمر بينك وبين نفسك بمداها الذي تتعدد فيه الزوايا وتكثر الأبعاد ! .

هذه حياته قد خبرتها ، وهذه دواوينه قد قرأتها ، فهل تحسب أن هناك شيئاً من الإجهاد للفكر الناقدة إذا ما وضعت صوره الفنية في أماكنها الدقيقة التي تتسع لها ولا تزيد ؟ كلا ... لأنها كما قلت لك واضحة في منظاري كل الوضوح ، ثابتة في مقاييس كل الثبات . ولكن الإجهاد كل الإجهاد في الإحاطة الكاملة بهذا الأفق الممتد إلى أبعد حدود النظر ... إن الظلال والأضواء على وضوحها تتشابك لكثرتها وتتداخل ، ولابد من الاحتشاد كل الاحتشاد لتفرق بين ظل وظل وتوفق بين ضوء وضوء ، وتجمع بين المؤتلف منها في مكان وبين المختلف منها في مكان آخر ! . . لقد كان على طه موزع الطاقة بين فنون شعره كما كان موزع القلب والفكر بين فنون حياته ؛ فالصورة الوصفية في إطارها الحسي ، والصورة الوصفية في إطارها النفسي ، تلتقيان وتمتزجان في شعر المرأة وشعر الغزل والطبيعة والرثاء والقومية والمناسبة ، حتى يصعب عليك أن تستخلص كل لون من ألوان هاتين الصورتين ، لتضعه في خانته المحددة التي تقدمه إليك من وراء عنوان !

ولعل القارئ يلاحظ أنني قد فرقت بين شعر المرأة وشعر الغزل ، وجعلت لكل منهما سمته الخاصة وطابعه المتميز ... ذلك لأن هناك لونين من الشعر يجب التفرقة بينهما في هذا المجال : لون يعبر عن مكان المرأة من الشعور الإنساني عند الرجل حين يصور المشاركة الوجدانية بين عاطفتين : وهو ما أسميه بشعر الغزل . ولون يعبر عن مكان المرأة من الغريزة الإنسانية عند الرجل حين يعرض لنزوات الجسد بين طبيعتين : وهو ما أدعوه بشعر المرأة .

ولكل من اللونين في شعر على طه نصيب أي نصيب !

على مدار الأداء النفسي سأدرس هذا الشعر ، وعلى أساس هذا الأداء يجب أن يدرس كل شعر عند القدامى والمحدثين . إنه في رأيي المحك الذي يظهر لك الشخصية الشعرية في ثوبها الطبيعي ويكشف لك عن الفن الشعري في معدنه الأصيل ... ودعك من الساجدين في محراب الأداء اللفظي ؛ أولئك الذين يزنون الألفاظ بضخامة هياكلها الخارجية : إنهم يذكرونني بذلك الصنف من الناس يحترم الرجل لضخامة مظهره ... غير ملتفت إلى ضآلة مخبره !

ولقد حدثتك في عدد مضى من « الرسالة » عن دعائم الأداء النفسي في الشعر ... وقلت لك عنها فيما قلت : إنها تتمثل في الصدق الشعوري أولا ، وفي الصدق الفني ثانيا ، وأخيراً في روافد هذين النهرين الرئيسين ، ونعني بها اللفظ والجو والموسيقى . ولا بد من رجعة إلى بعض الذي قلت بالأمس ، حتى تستطيع أن تجمع بين خطوط المشكلة الكبرى وبين التطبيق عليها عن طريق الصورة أو عن طريق المثال ...

« الصدق الشعوري » هو ذلك التجاوب بين « الوجود الخارجي » المثير للانفعال ، وبين « الوجود الداخلي » الذي ينصهر فيه هذا الانفعال ، أو هو تلك الشرارة العاطفية التي تندلع من التقاء تيارين . أحدهما نفسي متدفق من أعماق النفس ، والآخر حسي منطلق من آفاق الحياة . أو هو ذلك التوافق بين التجربة الشعورية وبين مصدر الإثارة المتمثلة في مجال الرصد الأمين للحركة الجائشة في ثنايا الفكر والوجدان ... هذا هو الصدق الشعوري وميدانه الإحساس ، أما « الصدق الفني » فميدانه التعبير ؛ التعبير عن دوافع هذا الإحساس تعبيراً تاماً يبرزه في صورته التي تهز منافذ النفس قبل أن تهز منافذ السمع ، وهذه هي التجربة الكبرى التي تختلف حولها القيم الفنية للشعر في معرض التفرقة بين أداء وأداء !

هناك شاعر يملك الصدق في الشعور ولا يملك الصدق في الفن لأنه لم يؤت القدرة على أن يلبس مشاعره ذلك الثوب اللائم من التعبير ، أو يمكن أحاسيسه ذلك البناء المناسب من الألفاظ ، ولا مناص عندئذ من الإخفاق في إظهار الطاقتين معاً : الشعرية والشعورية ... وهنا يأتي الدور الأخير من الأداء النفسي في الشعر ،

وهو الدور الذي يعتمد على اللفظ والجو والموسيقى : اللفظ ذو الدلالة النفسية لا المادية ، اللفظ ذو الظلال الوحية لا الظلال الجامدة ، اللفظ الذي يتخطى مرحلة إشباع المعنى الجزئي الواحد إلى مرحلة إشباع المعاني الكلية المتداخلة !

هذا هو مكان اللفظ من الأداء ؛ أما الجو فنقصد به ذلك الأفق الشعري الذي ينقلك بصدقه إلى مكان الفن وزمانه ، ويحقق لك تلك المشاركة الروحية بينك وبين الشاعر ، ويحدث لك نفس الهزات الداخلية التي تلقاها وهو في حالة فناء شعوري كامل مع « الوجود الخارجي » ...

ويبقى بعد ذلك عنصر التنغيم في مشكلة الأداء ، وهو عنصر له خطره البعيد وأثره الملحوظ في تلوين الانفعالات الذاتية في التعبير . وهنا يبدو الارتباط كاملا بين العناصر الثلاثة ، لأن « المنقل الشعري » ممثلا في عنصري الأجواء والألفاظ لا غنى له بحال عن عنصر « الموسيقى التصويرية » التي تصاحب « المشهد التعبيري » في كل نقلة من نقلات الشعور ، وكل وثبة من وثبات الخيال !

ويظهر أثر الربط بين هذه القيم في مشكلة الأداء النفسي حين نلتمس ذلك التناسق بين فنون الشعر المختلفة . . . إن لكل فن من هذه الفنون طابعه الخاص المتميز في مجال التصوير الفني عن طريق اللفظ والجو والموسيقى ؛ فمن أسباب الاخلال بالأداء النفسي أن تتخير اللفظ الهامس ، والجو الهادىء ، والموسيقى الحالمة مثلا في شعر الملاحم ، وأن تعكس القضية من وضع إلى وضع فتتخير اللفظ الهادر ، والجو الصاخب ، والموسيقى الصاخبة مثلا في شعر الغزل والرثاء .

قلت هذا من دعائم الأداء النفسي ثم زدت عليه هذه الفقرات : حسبنا أن نقول إن الشعراء المحدثين قد خطوا بفنهم لأصول الفن الشعري خطوات جديدة ، ووثبوا بالأداء النفسي وثبات أقل ما يقال فيها إنها ردت للألفاظ قيمها التعبيرية حين ردتها إلى محاريبها النفسية فغدت وهي صلوات شعور ووجدان . ويستطيع النقد الحديث أن يقول إنه قد وجد ضالته في هذا الشعر الذي وجد نفسه ... وإذا قلنا الشعر العربي الحديث ، فإنما نعني ذلك الشعر الذي بدأت مرحلته الأولى بتلك المدرسة من بعض شعراء الشيوخ وعلى رأسهم شوقي ، وبدأت مرحلته الثانية بتلك المدرسة الأخرى من بعض شعراء الشباب وعلى رأسهم إيليا أبو ماضي ، وفي شعر هذين الشاعرين تبدو ومضات الأداء النفسي أكثر لمعانها في شعر الآخرين !

من هذه الفقرات يتضح لك أنني قد جعلت أبا ماضي على رأس مدرسة الأداء النفسي عند شعراء الشباب — ولقد أصدرت هذا الرأي بالأمس وما زلت أؤيده حتى اليوم ، حتى هذه اللحظة التي أدرس فيها شاعراً ممتازاً من شعراء هذه المدرسة النفسية هو علي طه. ولكن بقيت من وراء هذا كله حقيقة ، وهي أن أبا ماضي يقف في الطليعة على أساس هذا الأداء في مجموعه — أريد أن أقول لك إن هناك صوراً من صور هذا الأداء في شعر علي طه تعلو فوق مستوى نظائرها في شعر أبي ماضي ، سواء أكانت تلك الصور وصفية في إطارها النفسي أم كانت وصفية في إطارها الحسي . ولك أن تقول والدليل بين يديك من شعر الشاعرين إن فرائد علي طه خير من فرائد أبي ماضي ، ولكن النتيجة الأخيرة هي أن أبا ماضي في مجموعه خير من علي طه في مجموعه ، على أساس النسبة العددية التي كلما قدمت لك عشر قصائد من شعر الأداء النفسي عند أبي ماضي ، قدمت إليك في مقابلها سبعاً من شعر هذا الأداء عند علي طه ... فإذا قلنا بعد ذلك إن ومضات الأداء النفسي أكثر لمعانا في شعر إيليا منها في شعر الآخرين ، فيجب أن يفهم أن المقصود بكثرة اللمعان هنا — في هذا التعبير — هو تلك الكثرة التي أشرت إليها في مجال النسبة العددية ، وفي النماذج التي سأقدمها من شعر علي طه في هذه الدراسة المطولة ما شئت من إقامة الدليل !

وأمضي في هذه الدراسة محدداً جوانبها مقسماً مراحلها ، إذ لا بد لكل دراسة كاملة من جوانب تحدد ومراحل تقسم ... لا بد من تصميم فني كتصميم يوضع عند رسم الخطوط الرئيسية في أي عمل من الأعمال الأدبية .

هناك مرحلة أولى سأتناول فيها بالنقد والتحليل أول صورة من صور الأداء النفسي في شعر علي طه ، وأعني بها الصورة الوصفية في إطارها النفسي ... وهي تمثل الشعر الذي تلمع فيه الومضة الفكرية مغمورة بأضواء الذاتية الوجدانية ؛ هناك حيث يتغنى الفكر الإنساني بين جدران النزوة والنزعة والنزوة والعاطفة .

وهناك مرحلة ثانية سأتناول فيها الصورة الأخرى من صور هذا الأداء ، وأعني بها الصورة الوصفية في إطارها الحسي ... وهي

صور من الحياة :

ركن يتـــداعى

للأستاذ كامل محمود حبيب

— ٢ —

لما كتبت القسم الأول من هذه الصورة أسرع إلىّ صديق من ذوى الجاه والشأن فى وزارة الأوقاف ، وحدثنى حديثاً فيه الشفقة والعطف ، وفيه الرجولة والإنسانية ، وطلب إلىّ مشكوراً أن يعين صاحب هذه الصورة على بلوائه بطريقة لا يحس الرجل فيها غضاضة الحاجة ولا ذل السؤال .

آه ، ما أحلى رجولتك يا من تهزك الأريحية الجياشة فتمد يدك الرقيقة لتمسح على أتراح رجل عضته نكبات الزمن ، ولتخفف من آلام إنسان جفته الأيام فى خفضه وسعادته ! إنك — ولا ريب — روح السماء ونسيم الجنة ، فدعنى أشكر عطفك ونبلك بلسان صديقى الذى دهته القارعة فاجتاحت قوته وحيله ورزقه .

« كامل »

نَدَّ عن صوابى يوم أن رأيتك — يا صاحبى — أول مرة ، تطحنك مرارة الفجيعة فى نور عينيك ، وطار عنى الحجا يوم أن لمست الأسى يتغلغل فى أغوار قلبك فيخترم شبابك ونشاطك من أثر الصدمة القاسية ، وماتت كلمات العزاء على شفتىّ يوم أن شهدت الصبية يرفون حواليك كالأقمار رونقاً وبهاء ويناديونك : « انظر — انظر ، يا أبى » ، وهم يتوثبون بهجة وسروراً لأنهم لا يحسون ما أصابك من لوعة وضيق .

وصرفتنى عنك شواغل الحياة حيناً ، فحز فى نفسى أن لا أجد السبيل إليك وأنت تعانى حر المصيبة ووهج البلوى . على حين أنى لم أنس — أبداً — أنك كنت لى فى ميعة الصبا رفيق الروح فى وحدة الحياة ، وأنيس القلب فى وحشة العمر ، ونور النفس فى ظلام العيش . وأمضَّ قلبى أن أرى حالك تحول فتنفض بشاشتك وتذوى سعادتك وتجدب حياتك ويتداعى ركنك ، ولكن روحى كانت — دائماً — تهفو إليك فتفيض لك نفسى بالهوى والود ، ويطفح قلبى بالشفقة والحنان ، فأنا ما زلت أذكر حديثك يوم أن قلت لى : « الآن — بعد أن نزلت بى هذه الداهية الهوجاء — أجدبت حياتى وأقفرت دنياى وانسدت فى وجهى سبل العيش ، فما عدت ألمس روح الخصب إلا فى لقياك ، ولا أنشق شذا الإنسانية

تمثل الشعر الذى ينتقل بالماديات إلى نطاق المعنويات ؛ هناك حيث تستحيل الحركة الحسية فى بوتقة اللفظ إلى موجة صوتية معبرة عن الوجود الداخلى . ومن ألوان الصورة الأولى عالم الطبيعة الإنسانية الخاصة ، وعالم النموذج النفسى العام ، وعالم النظرة الكونية فى محيط الفكرة السابحة فى أجواء المجهول . ومن ألوان الصورة الثانية عالم الطبيعة المادية الخاصة ، وعالم النموذج البشرى العام ، وعالم النظرة الواقعية فى محيط الرؤية الشعرية .

بعد هذا سأنتقل إلى المرحلة الثالثة من مراحل هذه الدراسة وهى مرحلة تطبيق هذه الألوان من الأداء النفسى على حياة على طه الشخصية . سأحاول أن أرد كل ظاهرة فكرية أو نفسية أو خلقية إلى مصادرها من الجو الطبيعى الذى تنفس فيه — أعنى أننى سأنتقل من مرحلة الأداء النفسى بمعناه الإصطلاحى فى أصول النقد ، إلى مرحلة الأداء النفسى بمعناه الوجودى فى واقع الحياة ، وهو المعنى الذى أشرت إليه من قبل حين قلت إن شعر على طه كان مرآة صادقة لجوانب حياته .

أما المرحلة الرابعة فستخصص للحديث عن المرأة فى شعر على طه — هل فهمها كما يجب أن تفهم ؟ هل نظر إليها كما يجب أن ينظر ؟ هل شرح الطبيعة الأنثوية كما يجب أن تشرح ؟ هل التقى مع شعراء المرأة هنا وهناك ، فى حدود الجسد حين يتخذ معبراً إلى الغريزة أو حين يتخذ معبراً إلى الإحساس بالجمال ؟ ... هذا فصل خاص سأحاول فيه أن أنتزع الحقيقة الفنية من أغوار الحقيقة الوجودية .

وإذا ما انتهيت من هذه المرحلة الرابعة مضيت إلى المرحلة الخامسة ، وهى أثر الثقافة الغربية فى شعر على طه — أثرها فى الأخيلة التى تغلب عليها الواقعية حيناً ، والرمزية حيناً آخر ، والرومانتيكية فى كثير من الأحيان . ثم أثر الآفاق الغربية فى إمداد ملكته الشاعرة بتلك الخامات من المشاهد والخواطر والأحاسيس ..

يتبع

أنور المعداوي

إلا في مجالسك، ولا أحس نسيم العزاء إلا في حديثك أنت ... أنت أيها الرجل والصديق والأخ ».

* * *

قال لي صاحبي : « وأخذت أروّض نفسي على حياة الظلام الدامس والوحدة الممضة والشظف المماتي ؛ فرقت مشاعري وأرهفت حواسي ، ولبست النظار الأسود أبغض ما يكون إلى لأداري خلفه لوعة قلبي وضعف نفسي ، وليكون حجاباً على أعين أولادي فلا تنفذ أبصارهم إلى علتي . وأحسست — بعد حين — أن الطبيعة تحبوني بعطف من لدنها علّها تعوضني بعض ماسلبتني فأصبحت شديد الوعي أحفظ مايلقى عليّ لأول مرة ؛ حديد السمع والشم أسمع النأمة الخافتة تصدر من مكان قصي ، وأعرف القادم من وقع قدميه ، وأنشق ريح الرجل فأتبينه مقبلاً أو مدبراً ؛ دقيق الحس لا يخطىء حدسي مكان الجدار وهو على خطوات مني ، ولا يكذب ظني موضع المنعطف ولما أبلغه بعد ؛ نافذ البصيرة أستشف طوايا النفوس وهي تختلج بين الضلوع ، وأحس نوازع القلب وهي تخفق بين الحنايا ... فهدأت ثورتي وسكنت جائشتي .

« وجاء صغاري — ذات يوم — يتدافعون ويسألون : أحقاً مانسمع ، يا أبي ، هل فقدت بصرك ووظيفتك ؟ وأنا رجل أقدس المبدأ والعقيدة ، وأومن بأن الطفل بريء بطبعه نقي بسليقته ، فهو لا يتعلم الكذب والخداع إلا في داره ، ولايتلقن اللؤم والمكر إلا من أبويه ، ولايسلك سبيل الضعة والخساسة إلا بقدر مايجدها في بيته . ولقد أخذت نفسي — منذ أن صرت أبا — بألا أحدث أولادي حديث الكذب والخداع أبداً . فقلت: « نعم ، يا أبنائي ! » وشعرت — إذ ذاك — بقسوة الصراحة ، فلقدخُيّل إليّ أن كلامي تهبط على هذه الأرواح الصغيرة المرحة مثلما تهبط الصاعقة الجاسية على شيء تافه ضئيل . واستشعروا الصدمة الشنيعة فاستخرطوا في بكاء مر طويل فيه الحرارة واللوعة ، وفيه الشفقة والحنان ... استخرطوا في بكاء مر طويل وأنا بينهم في حيرة وذهول أهدئ الروع فلا يهدأ ، وأسكن الثورة فلا تسكن . وجاءت كبرى بناتي وهي صبية جميلة القسمات خلابة اللفتات رائعة الحسن طيبة القلب رقيقة المزاج مرهفة الحواس ، جاءت لتضمني إلى صدرها وهي تذرف عبرات حرى تتدفق مدراراً على وجهي ، وتصرخ في غير وعي صرخات مفزعة : « أبي ... أبي ! » واندفعت تصرخ في لوثة وجنون ، وحار قلبي لما رأيت ، وتراءى لي أني أشهد مأتماً هو مأتمي ، وهؤلاء الصبية يشيعون أبام إلى رمسه ، فنازعتني نفسي إلى أن أستمع لضمق فأشاطرهم البكاء وأشاركهم النواح عسى أن أسري عن نفسي أو أخفف من شجو أولادي .

« آه ، ياصاحبي ، لقد كان مشهداً رهيباً مرعباً ، كاد يعصف بصبري وإيماني ، فسولت لي خواطري أن أفر من داري لأقذف بنفسي في اليم ، أو أقد قلبي بسكين ، أو آتي بروحي في هاوية مالها من قرار . ولكني خشيت أن أفجع أولادي سنين ، وفي القلب إيمان وأمل ؛ فسكت على أسى يتأجج ، وكتمت شجوني على حزن يتوهج ، وأطرقت وأنا أربت على كتف هذا ، وأضم ذاك إلى صدري ، وأقبل تلك في شوق وحنان .

« وعجب الصغار من صمتي وأخذتهم روعة معاني نهدات الثورة ، وفي النظرات ذهول وحنان . وانطلقنا جميعاً في موكب الحياة ؛ وزوجتي في القرية خمسة أفدنة . أما أنا فما ظفرت من ميراث أبي بشيء ، لأن أخي الأكبر كان قد عبث بتجارة أبي وعاث في حساباته تبعثر المال كله بطريقة شيطانية وضيعة .

« انطلقنا جميعاً في موكب الحياة وزوجتي في القرية خمسة أفدنة هي الأمل الباسم في ظلمة الحياة ، هي الشعاع الدقيق ينفث في القلب الراحة ويبعث في النفس الطمأنينة . وحدثتني نفسي بأن أهجر المدينة إلى القرية خشية أن تعصف بنا طلبات المدنية أو أن ترهقنا حاجات الحضارة . ووجدت في الخاطرة منفذاً ففزعنا إلى هناك عند أول زفرات الهاجرة .

« وفي القرية وجدت الراحة التي تعصف بالنشاط ، والخمول الذي يقتل الفكر ، والوحدة التي تورث الفناء ، والهدوء الذي يثير الأعصاب ، والفراغ الذي يشغل البال ، والجهل الذي يسخر من الثقافة . فكنت أقضي يومي وحيداً على مصطبة إلى جانب الباب في فيء شجرة ، أفتقد الصاحب وأفتقر إلى السمير ، فطالت أيامي وقد أمضها الملل والضيق ، ومن حولي أولادي تصرفهم الضعة وتتشاءم الحقارة وتسمدم الحرية .

« ثم هبت أول نسمات الخريف تحمل معها المشكلة الكبرى ... مشكلة الصبية تناديهم المدرسة . وأقبلت زوجتي تحدثني حديثهم في رفق ولين ، فألقيت السمع إلى كلامها غير أني لم أجد الرأي : ترى هل يعيش الصغار وحدهم في المدينة يقاسون

الشعر المصرى في مائة عام

الحالة السياسية والاجتماعية والفكرية

للأستاذ محمد سيد كيلانى

— ١ —

١٨٥٠ — ١٨٨٢

كان حكم محمد على بداية تحول فى تاريخ مصر الحديث . فى عهده شرعت البلاد تأخذ بأسباب النهضة والتقدم ، واتصلت بأوربا وطفقت تستفيد من علومها وثقافتها .

ثم مات محمد على وخلفه عباس الأول (١٨٤٨ — ١٨٥٤) وفى عهده كادت تتلاشى بوادر النهضة التى خلقها جده الكبير .

ثم جاء سعيد (١٨٥٤ — ١٨٦٨) وكان يمتاز بحبه للمصريين وعطفه عليهم فأدخل بعض الاصلاحات الزراعية فلهجت الألسن بالثناء عليه ، ووجه عناية خاصة بالجيش فرفع مستواه ، وفرض التجنيد الاجبارى على جميع أفراد الشعب ، وفتح باب الترقى أمام أبناء الفلاحين ، واهتم بتزويد الجند بأحدث أنواع الأسلحة التى عرفت فى عصره ، وشيد القلاع والحصون . وقد ظهر أثر ذلك فى الشعر فأخذ الشعراء يمدحون سعيدا وينوهون بشجاعته وإقدامه ، ويشيدون بجيوشه وأسلحته وقلاعه وحصونه . فمن ذلك قول السيد على أبى النصر :

هم جنود بل أسود بأسهم	يتقيه كل جبـــار عنيد
أقسمت أسيافهم لو جردت	يوم حرب لم تدع شخصا يحيد
والرماح اللدن أو مت بالظبا	نافذات فى التراقى والوريد
كم لهم من بندق أبدى لنـا	معجزات إذ له لان الحديد
كم لهم من مدفع آياته	بينات لفظها لفظ مفيد
كم توالوا فوق خيـل ضمر	ســابقات للقضا فيما يريد
لو أتت يوما على رغم العدى	مرسلات غادرته كالحصيد
إذ عليها كل ليث ضيغم	فى ملاقاة العدى برج مشيد

وقال السيد صالح مجدى مؤرخا بناء القلاع السعيدية بجوار القناطر الخيرية :

فأسس بالتقوى حصونا عديدة	بثانى جمادى بعد إبداء دعوة
فى جانب الكبرى لاحت بروجها	عليها مدار الأمن فى كل لحظة
ولما علت أركانها وتجهزت	بما يدفع الأعداء عنهـا بهمة

الوحدة والضياع ، وأظل أنا هنا أحمل هم نفسى وهم أولادى ، أم أنطلق معهم فأذر الأفئدة ، وهى عدتى على الزمن القاسى ودريئتى من الفاقة العاتية ... أذرها يتناهبها الفلاحون وما فيهم إيمان ولا أمانة ؟ ثم قر قرارى فتركت الصبية يسافرون إلى القاهرة ... تركتهم بين يدى القدر .

« وجاءتنى رسائلهم تترى فأحسست كأن كل رسالة تحمل فى طياتها أذى نفسى وضنى قلبى ، ثم جاءت رسالة تقول : « وقضينا الليلة الماضية فى حال من الفزع يفرق له الشجاع ، وفى رهبة من الرعب يخشع لها الأيّد ، وفى رعدة من الذعر يرتاع لها الجليد . فلقد أحسسنا باللص يتسلق أنابيب الماء حتى أوشك أن ينقضّ علينا لولا أن ندت من أختى صيحة مضطربة طار من هولها اللص ، وتبدد من شدتها الأمان من قلوبنا ، وكانت لفحات القر القاسية تلفحنا فتكاد أطرافنا تتجمد من زمهريرها ، والريح زفزافة تئن أنينا تنخلع له أفئدتنا ، فلصق بعضنا ببعض مثلما يلصق أجراء بأمها فى ليلة قرة نلتمس الدفء والأمان . وعصف بنا الخوف فما غمضت أجفاننا حتى انطوى الليل وبزغت الشمس ... »

« لقد ما أصابنى الجزع والذهول مما سمعت من كلام صغارى وهو يحز قلبى وخزات قاسية عنيفة تقضّ مضجعى وتزعجنى عن القرار ! .

« وعند الصباح ودعت القرية لألحق بصغارى ، ورضيت بالشظف لأكفل لأفراخى الأمان والهدوء .

« وها أنا الآن كما ترى — ياصاحبى — أعانى عنت الحياة وضيق العيش وغلظة الأيام ، أتعثر فى مهاوى الضياع ، تساورنى نوبات من الألم النفسانى فما يمسكنى إلا حب الولد — الولد الذى أطمع أن أراه رجلا يمسح على أتراحى بيده الحبيبة ويزيح عن أشجانى بكلماته الرقيقة ...

وسكت صاحبى ، وسكتُّ . وتلاقت خواطرنا وعبراتنا على حرقة وأسى ...

كامل محمود حبيب

وحصنت الأبراج منها مدافع تسوق إلى المغرور أثقل كاة
تكتل من أبطال مصر بحفظها رجال لهم بطش وأعظم سطوة

هكذا مدح الشعراء سعيدا . وأنت ترى أن مدح سعيد كان يقترن دائما بذكر عساكره وجنوده ؛ ومدافعه وبنادقه ، ومناعة استحكاماته ومتانة قلاعه وحصونه ، مع أن البلاد لم تستفد شيئا من هذه القلاع ولا من تلك الحصون ، بل تكبدت خسائر مالية فادحة دون مقابل . ولو أن سعيدا شيد معاهد للعلم بدل تلك القلاع لأفاد البلاد فائدة محسوسة ، ولكنه أهمل نشر العلوم والمعارف ولم تفتح في عهده مدرسة واحدة . لذلك أمسك الشعراء عن الخوض في هذا الباب ، ولم يقرن اسم سعيد بنشر العلم والعرفان ، ولم يعن الرجل بتشييد المصانع لتزويد الجيش بما يلزمه من ملابس وسلاح ، بل كان يستورد من أوروبا كل ما يحتاج إليه ، فترتب على ذلك أن أموال البلاد أخذت تتسرب إلى الخارج ووفد على مصر كثير من الأوربيين الطامعين في الثراء وأضحى نفوذهم يزداد يوما بعد يوم .

وفي عصر سعيد انتهت حرب القرم التي نشبت بين الدولة العلية وروسيا . وكانت مصر قد اشتركت في هذه الحرب وأبلى الجنود المصريون بلاء حسناً في ميدان القتال . وقد تغنى الشعراء المصريون بهذا النصر . فمن ذلك قول عبد الله فكري :

لقد جاء نصر الله وانشرح القلب
لأن بفتح القرم هان لنا الصعب
وقد ذلت الأعداء في كل جانب
وضاق عليهم من فسيح الفضا رحب
بحرب تشيب الطفل من فرط هولها
يكاد يذوب الصخر والصارم العضب
إذا رعدت فيها المدافع أمطرت
كؤوس منون قصرت دونها السحب

وقال الساعاتي :

أصياف سطاه كم فتكت وأرادت أن تعلو فعلت
والروس لها ذلت وعنت في مشهد حرب « سوستبل »

* * *

ثم قام سعيد برحلة إلى بلاد الحجاز . وكانت هذه الرحلة أشبه بحملة عسكرية إذ صحبه من الجند والحاشية نحو ألفي رجل من مشاة وفرسان ومدفعية وأتباع . وفي ذلك يقول الساعاتي مخاطباً سعيدا :

ملأت قلوب العرب رعباً فادروا
بعثت لهم بالكتب أم بالكتائب
تركتهم في أمرهم بين صادق
وآخر في تيه من الظن كاذب
تسير لهم في بحر جيش عرمرم
يفيض بموج الحتف من كل جانب
إذا هتفوا باسم العزيز تزلزلت
جبال عليها القل ضربة لازب
فكيف إذا عمت بالشهب أرضهم
وزاحمت ما في أفقهم بالنجائب
وجرد عليها الأسد في قصب القنا
ترى الأسد في الآجام مثل الثعالب

فعصر سعيد قد امتاز في بعض نواحيه بظهور الروح العسكري الوطني . وقد أثر هذا في الشعر على نحو ما بينا . وأقبل الشعراء في ذلك العصر على نظم الأناشيد العسكرية الحماسية ، فنظم رفاعة رافع الطهطاوي جملة أناشيد وطنية نذكر ما جاء في أحدها وهو :

يا جند مصر لكم فخار	بين الورى عالي المنار
كالشمس في وسط النهار	صيت لكم في الكون سار
حادي السعود به حدا	والطير صاح وغردا
بشرى لمصر قد بدا	فيها الفخار مؤبدا
بأميرها بحر الندا	أعني السعيد محمدا

وحذا حذوه السيد صالح مجدي فأنشأ « القصائد الوطنيات » وكذلك فعل مصطفى سلامه النجاري شاعر سعيد الخاص ، ومحمود صفوت الساعاتي .

وفي عصر سعيد ظهرت في مصر بعض المخترعات الحديثة كالسفن البخارية والآلات الزراعية التي تدور بالبخار وآلات رفع الماء كما أن السكك الحديدية قد أخذت تحل شيئا فشيئا محل وسائل النقل القديمة . وكذلك انتشرت الأسلاك البرقية . فتغنى الشعراء بهذه المخترعات . قال السيد صالح مجدي يصف « وابور » سعيد :

أمدينة من فوق لج الماء تجري بأبهج منظر وبهاء

أم هذه إرم بدت وعمادها ... مسبوكة من فضة بيضاء
أم ذاك وابور المسرة مده ... صدر البرية أسعد السعداء
وحبا به النيل المبارك فازدهى ... ببديع بهجة شكله الحسناء
فكأن هذا الفلك في تنظيمه ... فلك به تسرى نجوم سماء
وكأنه في النهر عند مسيره ... برق يقصر عنه طرف الرائي
أو أنه ملك خطير جنده ... ملأ من الأمواج والأهواء
فسما كرالأمواج برساها على ... سفن البخار طليعة الأعداء

وهكذا استمر الشاعر يصف هذه السفينة ويشبهها تارة بالمدينة وتارة بالفلك، وحيناً بالبرق وحيناً آخر بالملك.

وقال يذكر قنطرة بناها سعيد:

لله ما أبهى وأبهج قنطره ... صنع السعيد بها فزانت كوثره
ويصنها سكك الحديد مديدها ... أضحى لوافر نفعها ما أقصره
وكأنها والموج تحت رصيفها ... ملك ينظم بالشهامة عسكره
وكتائب العربات تلثم أرضها ... وتجوز وهي بأمنها مستبشره

* * *

ثم جاء الخديو اسماعيل (١٨٦٣ – ١٨٧٩) وكان عهده حافلا بجلائل الأعمال، فوجد الشعراء أمامهم مجال القول ذا سعة فقالوا. فلما حصل الخديو اسماعيل على نظام الوراثة الذي يقضي بحصر العرش في أكبر أبنائه (١٨٦٦) تسابق الشعراء إلى مدحه وتهنئته. وكان عباس الأول قد سعى من قبل في سبيل الحصول على هذا الحق فشل. وفي ذلك يقول عبد الله فكري:

ومهدت مد الله عمرك إرثه ... لأبنائك الطهر الجحاجحة الغر
وقبلك كم مدت لما نلت شأوه ... يد ثم ردت غير ظافر الظفرة
وما كل من يسمو لأمر يبالغ ... مداه ولا كل الجوارح كالصقر

وقال صالح مجدي:

وشيد أركان الوراثة فازدهت ... بذلك أوطان وسرت أنام

وقال من قصيدة أخرى:

وفي آلك الصيد الكماة تقررت ... وراثة تخليد رفعت لها ذكرا

وما تكاد تشيد مدرسة أو يبنى معهد أو يقام مصنع حتى يبادر الشعراء في تأريخ هذا شعراً. ومثال ذلك قول السيد صالح مجدي في أحد مصانع السكر التي أقامها اسماعيل:

وشاد بها فوريكة السكر التي ... بها الصدر اسماعيل ذو الدولة اعتنى
سمت روضة الأنس الجالية التي ... غدا نثرها بالسوق للناس محسناً

فياسكر الأحواز ما زلت سامياً ... إلى أن تسامى عنك سكر مصرنا

واهتم اسماعيل بتحسين مدينة القاهرة فشيد كثيراً من القصور الفخمة، وغرس الحدائق والبساتين، ومهد الشوارع والميادين. قال السيد صالح مجدي: «انتهزت فرصة عرضت لي في يوم من أيام المواسم الوقتية، للتنزه بالمدينة المحروسة المعزية، بقصد رياضة ذهن أعيته كثرة الأشغال، ووهم أسئمه تراكم الأعمال، فرأيت عن يميني وشمالي وخلفي وأمامي، في جميع البقاع التي سعيت إليها بأقدامي، من التحسينات الفائقة المصرية والتنظيمات الرائقة المصرية، ما توهمت به مع يقظتي أني في منام، وأن ما يبدو لناظري إنما هو من قبيل الأحلام. ومكثت على هذه الوتيرة، برهة من الزمن يسيرة، أتقلب من الدهشة في كل واد، وأرمق تلك التحسينات بعين الفؤاد. فلما أفقت مما أنا فيه بعد إمكان النظر، ووقفت عقب ذلك على جلية الخبر، نطق لساني بالثناء الجميل، على ولي النعم عزيز مصر اسماعيل، وقلت مصرحا بوصف بعض مخترعاته العجيبة.

ثغور التهاني للعزيز بواسم ... وأيامه بيض الليالي مواسم
وأثنان أدواح التمدن غردت ... بعصر عليها للأنام حمائم
فأما المباني فهي في حسن نظمها ... بروج لأفلاك السماء تزاحم
وفي الأرض للابصار تبدو كواكب ... من الغاز للبدر المنير تنادم
وأما قساطيم المياه بنفعها ... عميم وفيها للعباد مراحم
ومنها بساتين القصور تفتحت ... من الورد بعد الري فيها كمائم
وأما الميادين التي قد تجددت ... ولاحت عليها للفخار علائم
فأشرفها السامي بذكر (محمد ... علي) التي هابت لقاه الضراغم
ومنها التي في عابدين قصوره ... لها السعد طول الدهر في مصر خادم
ومنها التي في الأزبكية زانه ... بهاء وحلى ما حواه مناظم
وكيف وللتفريح فيه ملاعب ... بهن سرور للبرية دائم
وقصر ولي العهد فيه كأنه ... بما حوله فوق المجرة قائم
وفيه سرايات وفيه حدائق ... وفيه لإحياء الفنون معالم

وهكذا استمر الشاعر يذكر القصور والبساتين، والشوارع والطرقات والحدائق والمتنزهات، وكل ما ظهر من معالم الحضارة وآثار العمران كالسكك الحديدية والترع والقناطر والكباري قال:

وأما أخاديد الحديد فإنها ... قد انتشرت في القطر منها مغانم
وراجت بها بعد الكساد تجارة ... لها الحين في ظل الأمان مسالم
وقد غرست في جانبيها بحكمة ... لتوصيل أخبار البرايا قوائم

ثم انتقل من ذلك إلى ذكر دواوين الحكومة ومصالحها ومجلس الأحكام والمجلس المخصوص والمعايبة الأميرية ومصلحة التفتيش والدائرة السنية ودائرة الأعمال ومجلس النواب ، قال :

وعن مجلس النواب حدث فإنه   منوط بما فيه لمصر الغنائم

وذكر القانون القاضي بإلغاء السخرة فقال :

ولم يبق للتسخير في بر مصره   وجود وزالت قبل ذلك مظالم

* * *

ولما ارتبكت الأحوال المالية في مصر أخذ الشعراء يتناولون الحالة السياسية بالنقد والتجريح . ومن هنا بدأ الشعر السياسي في الظهور . قال صالح مجدي معرضاً بالخديو :

رمى بلادكم في قعر هاوية   من الديون على مرغوب جوسبار
وأنفق المال لا مناً ولا كرماً   على بني وقواد وأشرار
والمرء يقنع في الدنيا بواحدة   من النسا وهو لم يقنع بمليار
ويكتفي ببناء واحد وله   تسعون قصراً بأخشاب وأحجار
فاستيقظوا لا أقال الله عثرتكم   من غفلة ألبستكم ملبس العار

ولا شك في أن الشاعر قد تحامل كثيراً وبعد عن الصواب . فبعد أن أشاد بالأعمال الجليلة التي قامت في عصر اسماعيل ، وبعد أن تغنى بمظاهر الحضارة والعمران التي ازدانت بها مصر في أيام ذلك العاهل العظيم ، رجع يردد بعض التهم التي اخترعها نفر من الأوربيين الذين قاوم إسماعيل نفوذهم التي أرادوا فرضه على البلاد . ولسنا هنا بصدد مناقشة ما ورد في هذا الشعر وإظهار ما فيه من رأي فاسد فقد أغنتنا كتب التاريخ عن ذلك .

* * *

وقد ترتب على ارتباك الأحوال المالية فساد كبير في الأداة الحكومية فانتشرت الرشوة وعمت الفوضى .

وقد ظهر أثر ذلك في الشعر ، فنظم محمود سامي البارودي قصيدة رائعة في ذم الحكام وحض الناس على طلب العدل في الأحكام . ومما جاء فيها قوله :

لكننا غرض للشر في زمن   أهل العقول به في طاعة الخمل
قامت به من رجال السوء طائفة   أدهى على النفس من بؤس على ثكل
من كل وغد يكاد الدست يدفعه   بغضاً ويلفظه الديوان من ملل
ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت
قواعد الملك حتى ظل في خلل

ومنها يخاطب المصريين ويحضهم على الثورة في وجه الظلم والاستبداد . قال :

فيالكم لا تخاف الضيم أنفسكم   ولا تزول غواشيكم من الكسل

ومنها :

فأي عار جلبتم بالخمول على   ما شاده السيف من فخر على زحل

ومنها :

فبادروا الأمر قبل الفوت وانتزعوا
شكالة الريث فالدنيا مع العجل
وقلدوا أمركم شهماً أخا ثقة   يكون رداً لكم في الحادث الجلل

ومنها :

وطالبوا بحقوق أصبحت غرضاً   لكل منتزع سهماً ومختتل
ولا تخافوا نكالا فيه منشأكم   فالحوت في اليم لا يخشى من البلل

وقد حذا حذو البارودي كثير من شعراء ذلك العصر الذين كانوا من غير شك ينطقون بلسان الأمة ويعبرون عما يجول في في خواطر أفراد الشعب .

« يتبع »   **محمد سيد كيلاني**

مشكلات الفلسفة :

فكـــرة الله

للأستاذ عبد الفتاح الديدى

« ليس كمثله شيء »
قرآن مجيد

كتب الكثيرون في هذا الموضوع ، وتناولوه من نواحيه المتعددة بحيث لم تبق لنا بقية نحكيها ولا فضلة نذكرها . وإذا كنت أمسك بالقلم الآن لأخط هذه الكلمات فليس ذلك عن نقد لهؤلاء الذين تعرضوا لفكرة الله قبل الآن ، بالبحث والدرس ، وإنما أفعل هذا عن إيمان بأنني سوف أنظر إلى الموضوع نظرة عكسية ، وأنني سأنصرف إلى جانب آخر غير الذي اهتموا به ، وبذلوا عنايتهم من أجله . وأحب أن أرفع الخوف عن القارئ من إثارة هذا الموضوع مرة أخرى ، وأود أن أزيل عن نفسه كل حرج أو إشفاق من مواجهة مسألة الألوهية مواجهة صريحة فأنبئه مسرعا بأنني سأبحث الآن مشكلة الإنسان ذاته . وستجد نفسك قادراً — بعد توضيح بسيط — على أن ترفع هذا العنوان لتضع بدلا منه عنواناً آخر يتصل بالإنسان ومشاعره فوق الأرض وبإحساساته في الحياة . إذ أنني أومن تماما بأن فكرة الله ، كما حملها إلينا تاريخ الفلسفة ، لا تصور الله ولا تقرّب مفهومه من أذهاننا ، وإنما تعطينا فكرة صحيحة عن الإنسان نفسه من حيث مطامعه وشهواته وخواطره وآرائه ومخاوفه وملاذه .

فكرة الله عند الفلاسفة والمفكرين هي كتاب حافل بأحاسيس البشر وتاريخ ثابت لانفعالات الناس وسجل مشحون بالعواطف والمشاعر عند ما تطورت على مر العصور . والحقيقة الإنسانية تتكشف ، أكثر ما تتكشف ، من مراجعة هذا السجل الحاشد ومن تأمل هذه المظاهرات الوافرة . فليس يفيدك تأمل الأفعال العادية التي تأتيها الجماعات أو النظر في أمور معاشهم والمخالطة لهم في الحياة العامة بقدر ما يفيدك التفكير في هذه الصور التي يعرضها عليك المفكرون عند تدرجهم لصفات الله وتحقيقهم لمشكلة وجوده .

وقديما تنبه إكسانوفان لهذه الحقيقة على نحو بسيط عند ما قال إن الإنسان يصور نفسه في آلهته ، وإن هذه الأرباب من صنع الناس وابتكارهم . ولم يكن أمام إكسانوفان — الفيلسوف اليوناني — عندئذ غير هذه الآلهة التي صوّرها الشعراء السابقون على عصره كأمثلة يقدمها لنا تدليلا على هذه الحقيقة . أما نحن فنستطيع أن نجد كثيراً من البراهين ، على ما نذهب إليه ، من آراء الفلاسفة واعتقاداتهم في الله منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا.

فإذا ما أخذنا إله أرسطو — على سبيل المثال — وجدنا أنفسنا بإزاء كائن أبدي يوصف بأنه جوهر وأنه فعل محض وأنه يحرك ولا يتحرك . وهذه الصفات هي الوجه الآخر لما نلاحظه في حياتنا الأرضية من سمات الأشياء وخصائصها . فأبدية الله إنما تنشأ عن رغبتنا نحن البشر في تصور موضوع ، ونتيجة لأطماعنا التي لا حد لها في معاش يستمر بنا إلى ما لا نهاية . إذ أننا نحس في قرارة أنفسنا بأننا عاجزون أمام مظاهر الطبيعة وعوامل الفناء التي تعمل بكل قوتها على إنهاء الحياة المتمثلة في الأفراد ، وعلى إبطال ما يبدو أننا نستمتع به من متاع الوجود ولابد — والأمر كذلك — من تصور موضوعية أخرى غير إنسانية توصف بهذا الوصف الذي حرمتنا إياه الحياة وتتعلق بها تلك الكيفيات التي نحلم بتطبيقها على شئوننا الخاصة . فالوجود الأبدي الخالد هو الوجه الآخر لهذه الحياة التي نستشعر بأنها قد وُجدت منذ زمن قريب ولا نعرف مبدأها على وجه ثابت ، وهو الوضع المقابل لهذه المظاهر المتغيرة والأعراض الزائلة والحركة الدائمة .

ولا نستطيع أن نفسر صفات الله عند أرسطو إلا على ضوء هذه الحقيقة التي نعلنها إعلاناً صريحا ونؤكدها توكيداً قاطعا هنا . فالإله — كما نعلم — عبارة عن فكر خالص يتأمل ذاته ولا يمكن أن يكون هناك شيء آخر سوى ذاته كموضوع لتأمله مادام شرف التفكير متوقفا على شرف المادة ، وما دام من الصعب أن نقر رفعة العمليات العقلية من غير الوثوق برفعة الأشياء التي تكون محل اهتمامه . بل إن لذته القصوى إنما تكمن في هذه الحالة التي يستطيع بها أن يدور حول نفسه وأن يكون هو ذاته موضوعا لا يفرغ من تأمله ولا ينفك عن التفكير فيه . وهو لهذا السبب مشغول عن الحياة ، لاه عما يجري فوق الأرض ، مهمل لأحداث الكون .

فهذا الإله ، إن صح أنه إله ، وليد اختراع عبقرى ولا يمكن أن يصدر عن تصور آخر غير تصور الإنسان الذى يكلف بالبحث ويولع بالنظر العقلى الخالص . لقد كانت الحياة بمتاعبها ومضايقاتها تثير جانب الخيال — قبل كل شيء — فى عقل أرسطو وتدفعه دفعا إلى افتراض وجود كان يخلو من هذه الشواغل الوقتية وينصرف عن الحياة المادية إلى العمل الفكرى المجرد . أو يمكن أن نقول إن الحياة الفكرية بما كان لها من مقام فى نفس الشعب اليونانى القديم استطاعت أن تدفع بأرسطو دفعاً إلى مذهبه الغريب وتصوره الشاذ . ومن ناحية ثالثة نلاحظ أنه من السهل جداً تصور إله على هـذا النحو إذ تكرر وقوعنا فى الأزمات وتسددت فى سبيلنا المنافذ دون أن ينقذنا منقذ ويشير أن يبينا معين ، مهما رجوناه والتجأنا إليه ودعوناه مخلصين . فالإنسان يتصور الإله عبا الخير مادة ويفترض أنه يعمل جاهداً فى سبيل السعادة والهناء . ولا شيء غير ذلك . فإذا حصل أن اتجه الإنسان اتجاهاً سليا ، وأن سعى سعى كريما ، ثم ناله من وراء ذلك سوء وأصابه من جرائه نكر ارتد إلى رشده وعاود تفكيره وجعل ينظر مرة أخرى فى شأن الإله العلى القدير . وهو فى تلك الحالة إما أن ينكر وجود الإله ، وإما أن يؤمن بأنه موجود ولكن لا تربطه صلة بالعالم الأرضى ولا يشغل باله من أمره شيء ولا يحتل فى ذهنه أية مكانة . وهذا الموقف الأخير هو الذى ركن إليه ارسطو كما شاهدناه فى كلامه عن صفات الإله .

ولو قمنا باستعراض هـذه الفكرة — فكرة الإله — لدى الفلاسفة جميعا لانتهينا إلى النتيجة التى أعلناها من قبل والتى قلنا فيها إن الإنسان قد عكس خيالاته وأسقط أحلامه وأمانيه على النحو الذى اعتقدناه حسب ميولنا الفلسفية واتجاهاتنا الدينية . والإنسان معذور بطبيعة الحال عندما يفعل ذلك ويقدم على عمله بالشكل الذى وصفناه . ويمكن أن نضع سببين معقولين لحدوث هذه الظاهرة فى تاريخ الفكر .

أعتقد بأنه لاحيلة للانسان — أولا — بإزاء الصفات التى ينسبها إلى الإله مادام لايعلم غير هذه الصفات التى توجد بين يديه وتتوفر لديه . إن الصفات والكيفيات التى يدركها العقل الآدمى معروفة ومنتهية ولا يمكن الخروج عن نطاقها وابتكار سواها مما لا تعرفه الحواس ولا تتصوره العقول . إنما شرحت مثلا فى عد ألوان الأشياء وأحجامها وهيئاتها فلن تستمر طويلا بل سرعان ما سوف تحس بأنك قد انتهيت من الحسابات والتقدير . وإذا أردت أن تعمل عقلك فى مسألة ما أو شئت أن تخضع لتفكيرك أمراً من الأمور فلن تزيد — إذا اهتممت بوصفه — حرفا واحدا على هذه الكيفيات والشبات .

أما السبب الثانى فى حدوث هذه الظاهرة فأحسبه ناشئاً من طبيعتنا نحن البشر فى صبغ كل شيء بميولنا ، وعجزنا عن التخلص من أهوائنا ، وعدم قدرتنا على التفكير تفكيراً بريئاً من دوافعنا الباطنية مستقلا عن شخصياتنا . إن الأشياء فى ذواتها لا وجود لها قط فى حياة الإنسان ، والمعرفة الموضوعية التى تتعلق بالأشياء الخارجية لم تعرف الحياة يوما من الأيام ، ومهما تحدث العلماء عن علم نقى خال من آثار الإنسان وأهواء البشر فلن يجدى شيء من هذا الادعاء فى تخفيف أوعو ماتلقيه الذاتية من ظلال على مسائل التجربة ، وسوف تبقى نتائج الطبيعة خاضعة للمزاج والإرادة إلى أقصى درجة .

فهناك حدث لا شك فيـه وهو أننا نعتمد على أنفسنا اعتماداً كبيراً فى استقائنا المعلومات من العالم الخارجى وتصورنا للأشياء التى لا تدخل فى نطاق التجارب العادية بالنسبة إلى الإنسان . ومن ثم وجب أن نصطبغ كل مادة تفكيرنا ، وكل موضوع لأعمالنا ، بقوانا الذهنية فى التخيل والإدراك وبنوازعنا النفسية فى الهوى والجنوح . أو قل أنه مامن شيء من الأشياء يستطيع أن يتقرر فى الذهن وأن يتحقق فى دائرة معارف الإنسان من غير أن يمر بالنفس التى تمده الإعداد الكافى وتنقحه التنقيح الواجب . ولا تغرنك ادعاءات الرجال الذين يشتغلون بالعلم فى هـذا الباب لأن أقوالهم لا تصدق ولا تستحق الاحترام إلا من جهة واحدة حينما ننظر إليها على أنها ضرب من الحلم أو التمنى البرىء .

وكذلك الأمر فى مسألة الإله ؛ فنحن حيارى وسط مظاهر الحياة وبين جدوان الطبيعة التى تظلنا من كل جانب ، ونبدو أمام أنفسنا كالتائهين الذين يتطلعون إلى السحب القاتمة عسى أن تبرق ، وإلى الآفاق المدلهمة عسى أن تضيء . ومهما تبدت لنـا دلائل الإعجاز من حولنا أو تكشفت لأعيننا حقائق الباطن المستور فإننا لا نكاد نخلص من الحيرة ولاننتهى من الشك ولانقف عند حد

من حدود الإرجاف والتخمين . وذلك لرغبتنا في برهان من الواقع المحسوس وميلنا إلى الوقوف على كل ما يمكن أن يكون هنالك سافراً مفضوحاً . ولكن الحقيقة لا تتكشف والباطن لا يبين والقلق لا ينتهي .. فلنفكر إذاً ولنُعمل عقولنا ولنوجد نحن المشكلة ولنضعها في الصحائف والكتب على النحو الذي نريد .

وهكذا انتهينا إلى تصور الله وتخيله ، وشبهناه وقربناه ، فكانت آراؤنا من قبيل الأمنية ، وكانت أفكارنا ضرباً من الأحلام ، ولا يستطيع واحد من الناس أن يزعم أن الإله الذي قدره هو نفسه الإله المشرف على نظام الكون والمدبر لأمور الناس .

ولا يملك واحد من الناس القدرة على إثبات التطابق بين الإله الذي وصفه والإله الموجود وجوداً قطعياً . فالله هو الله ؛ أما آلهتنا التي نصفها فهي من قبيل المحاولات التي يجوز أن تتجه اتجاهاً صحيحاً ، ويجوز في الوقت نفسه ألا يكون لها أي سند من الواقع أو أي تقريب معقول .

فالآلهة التي نتحدث عنها والتي نصف أفعالها إنما هي صدى لحياتنا العملية بما فيها من نقص واضطراب . فالله يخلق المرض لأننا نمرض ، ولو لم يكن المرض من لوازم حياتنا المعيشية لما تصورنا الله قادراً على شفاء الناس من الأمراض . والله هو السبب في المكاسب والخيرات ، وهو الذي يهدي الناس إلى سبيلهم ويطعمهم ويسقيهم . وبعبارة موجزة : يأتي الله كل الأعمال الوظيفية التي لا تعدو أن تكون ضمن المطالب العادية . وكلما فكرنا في الله وصفاته لم نستطع أن نخرج به عن هذا الحيز الضيق وعن هذا النطاق المحصور ، لماذا ؟ لأن الأرض مسرح لها ولأن حياة الناس ملأى بهذه الأشياء التي ترضيهم أحياناً وتسوءهم أكثر الأحيان .

فالله الذي نعترف به ونقر بوجوده ونسلم بسلطانه أسير حياتنا الدنيوية ويمكن وصفه بأنه إله إنساني — إن صح هذا التعبير — مرّ بالعقول قبل أن تؤمن به الصدور ، وامتحنه الخيال قبل أن تسلم به الروح ، واستأثرت به المصلحة قبل أن ينفذ إلى عالم الضمائر . ولذلك نستطيع أن نجد فيه مشكلتنا نحن أنفسنا لا مشكلة الله ، ونستطيع أن نلمس فيه ضعفنا بارزاً وأن نجد عنده آلاماً واضحة وأن نصادف على وجهه مسحة الهم البشري .

قال سارتر عندما كتب عن قصة ضياء أغسطس لفوكنير :

« تصير القصص الجيدة — من بعيد قليل — شبيهة تماماً بالظاهرات الطبيعية . إننا ننسى أن لها مؤلفاً وننظر إليها نظرتنا إلى الأحجار والأشجار لأنها هنالك ، ولأنها موجودة . »

ونستطيع أن نقول عن الذين يتحدثون عن صفات الله إن كلامهم يصير بمضي الزمن حقيقة راسخة في نفوسنا وننظر إلى أحكامهم على أنها أمور مقطوع بها وننسى غالباً هؤلاء الذين صدرت عنهم وبدرت منهم في ظرف من الظروف . والغريب في هذه المسألة هو أننا نأخذ كلامهم مأخذ الجد ونخضع أنظارهم للبحث والنقد ونجعل منها بعد حين موضوعاً للجدل والنقاش . هذا مع أننا نستطيع من أول الأمر أن نريح أنفسنا بأن نفرق بين أهوائنا وبين الوقائع الصحيحة ، وبين ما نريده نحن وبين ما هو حاصل بالفعل .

فالإنسان لا يملك إلا أن يفكر وأن يقدح ذهنه في مسائل الكون التي تشغل باله وتقلق من راحته وهدوئه . وهذا طبيعي ومقبول منه إذا لم يأت بعد ذلك ليصف لنا أشياء ، لم يطلع عليها ولم تتكشف له ، وصف الشاهد الخبير . وحتى هذا العمل الوصفي معقول ومقبول ، على ألا يأتي بعد ذلك إنسان فيتحدث عنها كما لو كان يتحدث عن الحقائق المقررة .

ونعود ثانية لنقول إن الله أرفع شأناً وأسمى مقاماً من أن نخضعه لأحكامنا ومن أن يتحدد بأهوائنا ويتوقف شكله على أمورنا المعيشية . وأي وصف نلصقه به وأية كيفية نلحقها بذاته لا تخرج عن كونها تخميناً لا يرتفع إلى درجة اليقين ولا يوثق به الوثوق الكامل . أما إذا أخذنا مسألة الصفات على حقيقتها ونظرنا فيها على أنها مشكلتنا نحن البشر فأغلب الظن أننا سنبلغ أمراً على قدر كبير من الأهمية من ناحية التحليل الخاص بالعواطف الإنسانية والتسجيل الدقيق لخواطر الناس والإحساسات التي تعم بني آدم فوق الأرض . وذلك لأننا أقرب إلى أنفسنا عندما نتحدث عن الله منا إلى الله ، وأشد ارتباطاً بقلوبنا وأوضاعنا في تلك الآونة منا إلى ملكوت السماء ، وأكثر حباً لمصالحنا وأهوائنا منا لهدى الله ورضوانه .

أيها الإنسان ! ثب لرشدك وعد إلى نفسك وانفض غبار النفاق عن جبينك لتعلم أن الرب أعظم من أن يلحقه وصف ، وأرفع من أن تلبسه كيفية ، وأسمى من أن يلابس المقادير وماجريات الأمور على أرض دنستها برياءك ، ووسمتها بلحم آبائك .

عبد الفتاح الديدي

أهل العلم والحكم

في ريف فلسطين

للأستاذ أحمد سامح الخالدي

(تتمة)

وقد بنى على هذا الدير الملك المعظم عيسى بن الملك العادل الايذى قلعة حصينة وأنفق عليها الأموال الجمة وأحكمها غاية الأحكام . فلما كان في سنة ٦١٥ هـ وخرج الإفرنج من وراء البحر طالبين لبيت المقدس أمر بخرابها حتى تركها كأمس الدابر والتحق (سور) البيت المقدس بها في الخراب فهما إلى هذه الغاية خراب (القرن السابع) . معجم البلدان (ج ٦ — ٦٧)

وهناك طوران آخران أولهما الجبل المشرف على نابلس ولهذا يحجه السامرة . والثاني طور زيتا أو « جبل الزيتون » وهو مشرف على المسجد الأقصى ، وبينهما وادي جهنم ، وفيه صلى عمر بن الخطاب . وفي الأنس الجليل ج ١ — ٢٥٨ أن أم الخير رابعة بنت اسماعيل العدوية البصرية[1] الصالحة المشهورة (من أعيان عصرها في القرن الثاني) وقبرها على رأس جبل طور زيتا شرقي البيت المقدس ، بجوار معبد موسى عليه السلام ، وهو في زاوية ينزل إليها من درج .

ويقول في ج ٢ — ٤١٠ عن أبي هريرة : أقسم ربنا بالتين والزيتون ، والزيتون طور زيتا . والتين مسجد دمشق . وعن صفية زوج الرسول أنها قدمت القدس فصلت به ، وصعدت إلى طور زيتا وصلت وقامت على طرف الجبل وقالت « من ها هنا يتفرق الناس يوم القيامة إلى الجنة وإلى النار » ومن هذا الجبل صعد عيسى عليه السلام ، وعلى رأسه كنيسة من بناء هيلانة في وسطها قبة . ولما فتح صلاح الدين القدس سنة (٥٨٣ هـ) وقف أرض طور زيتا على الوالي الصالح ولي الدين أبي العباس أحمد الهكاري ، وعلى الإمام الزاهد أبي الحسن الهكاري ، سوية بينهما وعلى ذريتهما ، وقبر مريم عليها السلام في كنيسة في داخل جبل الطور في أقصى الجسمانية وهو مكان مشهور مقصود للزيارة من المسلمين والنصارى والكنيسة من بناء هيلانة أم قسطنطين .

أما الوديان والعيون فيذكر منها وادي النمل بين بيت جبرين وعسقلان ، ولا يذكر وادي النسور وهو بظاهر القدس من جهة الغرب يسير فيه الآن القطار الصاعد من الرملة إلى القدس وقد دفن فيه القطب الكبير بدر الدين ابن محمد من أولاد سيدنا علي ابن أبي طالب توفي (٦٠٥ هـ) وأولاده (بشرفات) وكانت تعرف « بشفرات » فلما انتقل إليها الأشراف أولاد أبي الوفا غيروا اسمها .

وقد ذكر من العيون ، عين البقر وهي قرب عكا ، يزورها المسلمون والنصارى واليهود ، وعليها مشهد ينسب إلى علي ابن أبي طالب (معجم البلدان ٦ — ٢٥٣) .

وعين الجالوت ، وهي بليدة لطيفة بين بيسان ونابلس استولى عليها الصليبيون ، واستنقذها منهم صلاح الدين سنة (٥٧٩ هـ) معجم ٦ — ٢٥٤ . ولم يذكر ياقوت أن التتار هزموا بها ، لأن الوقعة كانت بعد وفاته . أما عين سلوان فهي في ربض بيت المقدس تحتها عين عذبة تسقي جناناً عظيمة وقفها عثمان بن عفان على ضعفاء البلد (المجذومين) .

(ولا يزال منهم نفر بها) .

أما الحصون والقلاع فيذكر منها « الجيب » ويقول هي حصنان يقال لها الجيب الفوقاني والجيب التحتاني بين بيت المقدس ونابلس وهما متقاربان (معجم البلدان ٣ — ١٨٦) وتقع الجيب إلى يمين السالك من رام الله إلى القدس .

ومنها حصن العنب ، وهو من أرض بيت المقدس واسمه الآن قرية « العنب » أو « أبو غوش » وأبو غوش هي عائلة إقطاعية تسكن هذه القرية ، وكانت في العهد العثماني تجبي من زوار بيت المقدس جعلاً مقابل خفر الطريق ، وفيها عين ماء ذكرها الرحالة ناصر خسروي الذي زار بيت المقدس في سنة (٤٣٨ هـ) وفيها أكثر من دير .

ويذكر حيفا فيقول إنها حصن على ساحل بحر الشام قرب يافا ، لم يزل بأيدي المسلمين إلى أن تغلب عليه كندفرى الذي ملك بيت المقدس سنة (٤٩٤ هـ) وبقي في أيديهم إلى أن فتحه

(١) وفي قول أنها دفنت بالبصرة

صلاح الدين سنة (٥٧٣ هـ) وخربه.

وفي تاريخ دمشق ذكر لإبرهيم بن محمد بن عبد الرازق أبو طاهر الحافظ الحيفي من أهل قصر (حيفة) سمع بأطرابلس (طرابلس) وحدث بصور سنة (٤٨٦ هـ). (معجم البلدان ج ٣ — ص ٣٨٢). ثم يقول تحت اسم «قصر حيفا» موضع بين حيفا وقيسارية ينسب إليه أبو محمد عبد الله القيسراني القصري سكن حلب وكان مفتيها. تفقه بالعراق بالمدرسة النظامية (أسسها نظام الملك سنة ٤٥٩ هـ) على أبي الحسن الهراس، وأبي بكر الشاشي الخ وارتحل إلى دمشق وعمل بها حلقة المناظرة وانتقل إلى حلب فبنى له ابن العجمي بها مدرسة درس بها إلى أن مات سنة (٥٤٤ هـ ؟). (معجم البلدان ٧ — ١٠٠).

ويعلق ياقوت على «قصر حيفه» بالهاء، وأنا أحسبه المذكور قبله أي حيفا فيعتبرهما مكاناً واحداً.

ومن الحصون الأخرى المخروبة وهو بسواحل بحر الشام مشرف على عكا، وقد جاء ذكره أكثر من مرة في حروب صلاح الدين للصليبيين حول عكا. ومنها الداروم، قال ابن الكلبي قال الشرقي نزل بنو حام مجرى الجنوب والدبور ويقال لتلك الناحية الداروم، فجعل الله فيهم السواد والأدمة، وأعمر بلادهم وسماءهم وجرت الشمس والنجوم من فوقهم ورفع عنهم الطاعون، والداروم قلعة بعد غزة القاصد إلى مصر والواقف فيها يرى البحر إلا أن بينها وبين البحر مقدار فرسخ وقد خربها صلاح الدين لما ملك الساحل سنة ٥٨٤ هـ وينسب إليها الخمر. قال اسماعيل بن يسار:

يا ربع رامة بالعلياء من ريم هل ترجعن إذا حييت تسليمي
ما بال حي غدت بزل المطي بهم تخدي لفرقتهم سيراً بتقحيم
كأنني يوم ساروا شارب سلبت فؤاده قهوة من خمر داروم
إني وجدك ما عودي بذي خور
عند الحفاظ ولا حوضي بمهدوم

وغزاها المسلمون في سنة ثلاث عشرة وملكوها فقال زياد بن حنظلة.

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها شد الخيول على جموع الروم
يضربن سيدهم ولم يمهلهم وقتلن فلهم إلى داروم

ويقال لها الدارون أيضاً، وينسب إليها على هذا اللفظ أبو بكر الداروني روى عن عبد العزيز العطار عن شقيق البلخي روى عنه أبو بكر الدينوري بالبيت المقدس سنة (٣٠٨ هـ). (معجم البلدان ٤ — ١٣).

ومن الحصون التاريخية وهو اسم قلعة حصينة قبل بيت المقدس والطرون (اللطرون) وهو حصن بين بيت المقدس والرملة، فتحه صلاح الدين سنة (٥٨٣ هـ)، وفيه عين ماء، وهو قرب باب الواد ويعتبر من الحصون المسيطرة على طريق يافا بيت المقدس.

ومن الحصون الشهيرة عثليت «عتليت» وهو في سواحل الشام (جنوبي حيفا) ويعرف بالحصن الأحمر، فتحه صلاح الدين سنة ٥٨٣ هـ (معجم البلدان ٦ — ١٢٢).

ومنها أيضاً عفراء وهو حصن قرب بيت المقدس ويعتبر ياقوت «العفرة» بلدة ويقول أنها بفلسطين من نواحي فلسطين (معجم البلدان ٦ — ٤٠٥) أما الأنس الجليل فيقول أنها كانت من أحسن الحصون، وفيها من العدد والأموال الشيء الكثير، وأن الافرنج كانوا يتحصنون بها. وفتحها صلاح الدين سنة ٥٨٣ هـ (الأنس الجليل ج ١ — ٢٨٨)

ومن الحصون في الساحل بين حيفا ويافا، «قاقون» ويقول عنه ياقوت أنه قرب الرملة، وقيل أنه من عمل قيسارية، ومنها أبو القاسم القاقوني أمام مسجد الجامع بقيسارية روى عنه سلامة الجبلي، ومنها شبل أبو القاسم الصوبني القاقوني سمع بدمشق وروى عنه أبو الفتيان الدهستاني. (معجم البلدان ٧ — ٤١٦)

وكانت قاقون على طريق القوافل الواردة من الجنوب مارة بالرملة، فالجولية، فقلنسوة فقاقون، فاللجون فرج بني عامر فبيسان فدمشق، أو من اللجون جنوباً. وقد جاء ذكرها في حملة نابليون في أواخر القرن الثامن عشر.

وإلى الجنوب من قاقون (قلنسوة) وقد ذكرها ياقوت وقال عنها أنها حصن قرب الرملة وقد قتل بها عاصم بن أبي بكر بن عبد العزيز بن مروان، وعمر بن أبي بكر وعبد الملك وأبان ومسلمة بنو عاصم وعمرو بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان ويزيد ومروان وأبان وعبد العزيز والأصبغ بنو عمرو بن سهيل بن عبد العزيز، حملوا من مصر إلى هذا الموضع وقتلوا فيه مع غيرهم من بني أمية

(معجم البلدان ٧ – ١٥٢) .

ومن الحصون ، (كرمل) ، وهو حصن على الجبل المشرف على حيفا ، وكان قديماً في الإسلام يعرف بمسجد سعد الدولة . وكرمل قرية في آخر حدود الجليل من ناحية فلسطين (معجم البلدان ج ٧ – ٢٤٤) والكرمل هو اسم الجبل الذي بني عليه الحصن .

ومن القلاع التي اشتهرت في الحروب الصليبية قلعة «كوكب» وهي على الجبل المطل على مدينة طبرية . ويقول ياقوت أنها حصينة ومنيعة تشرف على الأردن افتتحها صلاح الدين فيما افتتحه من البلاد ثم خربت بعد ذلك .

وقد جاء ذكرها في الأنس الجليل (١ – ٣١٦) وقال إن السلطان صلاح الدين حاصرها سنة ٥٨٤ وقاتل أهلها أشد حصار وهدم غالب بنائها وملكها وعرض القلعة على جماعته فلم يقبلوها فولاها قايماز النجمي على كره منه ..

* * *

أما المواقع فأشهرها أجنادين[1] وحطين، وقد ذكرها ياقوت فقال عن الأول (أجنادين) وقد تكسر الدال وتفتح النون بلفظ الجمع ، وأكثر أصحاب الحديث يقولون أنه بلفظ التثنية ، ومن المحصلين من يقوله بلفظ الجمع ، وهو موضع معروف بالشام من نواحي فلسطين . وفي كتاب أبي حذيفة السيدي أن أجنادين من الرملة من كورة بيت جبرين كانت به وقعة بين المسلمين والروم مشهورة – وقالت العلماء بأخبار الفتوح شهد يوم أجنادين مائة ألف من الروم سرب هرقل أكثرهم وتجمع الباقي من النواحي وهرقل يومئذ بحمص فقاتلوا المسلمين قتالا شديداً ثم هزموا وتفرقوا وقتل المسلمين منها خلقاً واستشهد من المسلمين عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف وعكرمة ابن أبي جهل والحارث بن هشام[1] . وأبلى خالد بن الوليد يومئذ بلاء مشهوراً وانتهى خبر الواقعة إلى هرقل فهرب من حمص إلى إنطاكية وكانت سنة ثلاث عشرة قبل وفاة أبي بكر بنحو شهر فقال زياد بن حنظلة :

ونحن تركنا أرطبون مطرداً ... إلى المسجد الأقصى وفيه حسور
عشية أجنادين لما تتابعوا ... وقامت عليهم بالعراء نسور
عطفنا له تحت العجاج بطعنة ... لها نشج نائى الشهيق غزير
فطمنا به الروم العريضة بعده ... عن الشام أدنى ما هناك شطير
فولت جموع الروم تتبع إثره ... تكاد من الذعر الشديد تطير
وغودر صرعى في المكر كثيرة ... وعاد إليه الفل وهو حسير

وقال كثير بن عبد الرحمن :

إلى خير أحياء البرية كلها ... لذى رُحُم أو خلة متأسن
له عهد ود لم يكدر بريبة ... وتوال معروف حديث ومزمن
وليس امرؤ من لم ينل ذاك كامرئ
بدا نصحه فاستوجب الرفد محسن
فإن لم تكن بالشام دارى مقيمة ... فإن بأجنادين كنّى ومسكنى
منازل صدق لم تغير رسومها ... وأخرى بميافارقين فموزن

(معجم البلدان ج ١ – ١٢٦) .

وأما «حطين» فكانت فيها الوقعة الفاصلة بين صلاح الدين والأفرنج سنة (٥٨٣ هـ) وهي قرية بين طبرية وعكا ، بالقرب منها قرية يقال خيارة * وذكر الحافظان أن حطين بين أرسوف وقيسارية ، وهو غير الذي عند طبرية وإلا فهو غلط منهما .

ونسب الحافظان إليها أبا محمد هياج الحطيني الزاهد نزيل مكة سمع من كثيرين منهم أبا أحمد التيسراني . وسمع منه جماعة من الحفاظ منهم محمد بن طاهر المقدسي وأبو القاسم هبة الله الشيرازي

(١) هي الآن خربتان بالقرب من الرملة تعرفان بخربة الجنابة الفوقا والتحتا ولقد يسميها الفلاحون فيقولون « الجنابين » وهما بين زكريا وبيت جبرين .

ومن المواقع الحربية الأخرى موقعة (عربة) أوقع بها أبو أمامة الباهلي بالروم وكانت به وقعة للمسلمين مع الروم أول الفتح) :

— قال أبو سليمان الأكلى

أبونا رسول الله وابن خليله ... بعربة بوأنا نعم المركب
أبونا التي لم تركب الخيل قبله ... ولم يدر شيخ قبله كيف يركب

وقال أسد بن الجاحل :

وعربة أرض جد في الشر أهلها ... كما جد في شرب النقاخ ظماء

(ياقوت ٦ – ١٢٨) . ووقعة الطواحين بين خاروية بن والمعتضد سنة ٢٧١ هـ ، وهي قرب الرملة .

٣٣٠٤٦

(١) في سير التراجم أن الصحابة الذين استشهدوا بأجنادين منهم ، أبان بن سعيد بن العاص ، والمجلج بن الحارث ، وخالد بن سعيد بن العاص وحصين بن عمر التيمي ، ونعيم بن عبد الله النحام ، وهبار بن سفيان المخزومي ، وسلمة بن هشام المخزومي ، وطليب بن عمير ، وعبد الله بن العدوي ، وعبد الله بن الأثرم ، وعبد الله بن عمرو الدوسي ، وعبيد الله ابن سفيان ، وأبو عبيدة بن عمارة المخزومي ، وهشام بن العاص .

كما نسب إليها جعفر محمد بن أبي علي الحطيني وغيرهم وكان زاهداً فقيهاً مدرساً يفطر كل ثلاثة أيام ويعتمر كل يوم ثلاث عُمر، ويلقي على المستفيدين عدة دروس، ولم يدخر شيئاً. وكان يزور رسول الله كل سنة حافياً، ويزور ابن عباس بالطائف، واستشهد في مكة في وقعة وقعت بين أهل السنة والشيعة، فحمله أميرها محمد بن أبي هاشم فضربه ضرباً شديداً على كبر السن ثم حمل إلى منزله فعاش بعد الضرب أياماً ثم مات سنة (٤٧٢ هـ) (معجم البلدان ٣ — ٢٩٨). (وشذرات الذهب ٣ — ٣٤٢)

وقد وصف لنا ياقوت بعض مواقع في فلسطين منها النواقير، والثور، والجارة. أما النواقير وهي معروفة الآن بالناقورة(١) فقرجة في جبل بين مكة وصور على ساحل بحر الشام. قيل إن الإسكندر أراد السير على طريق الساحل إلى مصر ومنها إلى العراق فقيل له إن هـذا الجبل يحول بينك وبين الساحل فنقر ذلك الجبل وأصلح الطريق فيه فلذلك سمي بالنواقير. (معجم البلدان ٨ — ٣٢٠)

وقال من الثور إنه منخفض من أرض دمشق والبيت المقدس وفيه نهر الأردن وبلاد وقرى كثيرة وعلى طرفه طبرية وبحيرتها ومنها مأخذ مياهها. وأشهر بلاده بيسان بعد طبرية وهو وخيم شديد الحر، غير طيب الماء، وأكثر ما يزرع فيه قصب السكر. ومن قراه أريحا، وفي طرفه الغربي «الجنوبي» البحيرة المنتنة وفي طرفه الشرقي «الشمالي» بحيرة طبرية (معجم البلدان ٦ — ٣١٢).

ويصف لنا ياقوت الريف الفلسطيني بين رفح وغزة فيقول إن بينهما ثمانية عشر ميلا. وعلى ثلاثة من رفح من جنب غزة شجر جميز منعطف من جانبي الطريق من اليمين والشمال نحو ألف شجرة متصلة أغصان بعضها ببعض مسيرة نحو ميلين، وهناك منقطع رمل الجفار ويقع المسافرون في الجلَد. وما زال المسافر بين غزة وخان يونس يرى أشجار الجميز الباسقة هذه.

أما الجفار وهي ما يعرف بالنجب الآن (أو قضاء بير السبع بالاصطلاح الإداري) فهي بين فلسطين ومصر أولها رفح من جهة الشام وآخرها الخشبي متصلة برمال تيه بني إسرائيل وكلها رمال سائلة بيض في غربيها منعطف نحو الشمال بحر الشام وفي شرقيها منعطف نحو الجنوب بحر القلزم (البحر الأحمر) وسميت الجفار لكثرة الجفار بأرضها ولا شرب لسكانها إلا منها رأيتها مراراً. ويزعمون أنها كانت كورة جليلة في أيام الفراعنة إلى المئة الرابعة من الهجرة، فيها قرى ومزارع، أما الآن ففيها نخل كثير ورطب طيب جيـد وهو ملك لقوم متفرقين في قرى مصر يأتونه في أيام لقاحه فيلقحونه، وأيام أدراكه فيجتنونه، وينزلون بينه بأهليهم في بيوت من سعف النخل والحلفاء. وفي الجادة السابلة إلى مصر عدة مواضع عامرة يسكنها قوم من السوقة للمعيشة على القوافل وهي «رفح والقس والزعقا والعريش والورادة وقطية» في كل موضع من هـذه المواضع عدة دكاكين يشترى منها كل ما يحتاج المسافر إليه ...

قال أبو الحسن المهلبي في كتابه الذي ألفه للعزيز وكان موته سنة (٣٨٦ هـ) «وأعيان مدن الجفار العريش ورفح والورادة، والنخل في جميع الجفار كثير وكذلك الكروم وشجر الرمان، وأهلها بادية متحضرون ولجميعهم في ظواهر مدنهم أجنة وأملاك وأخصاص فيها كثير منهم، يزرعون في الرمل زرعاً ضعيفاً يؤدون فيه العشر، وكذلك يؤخذ من ثمارهم.

ويقطع في وقت من السـنة إلى بلادهم من بحر الروم طير من السلوى يسمونه المُرغ «الفر» يصيدون منه ماشاء الله يأكلونه طريا ويقتنونه مملوحا. ويقطع أيضاً إليهم من بلد الروم على البحر في وقت من السنة جارح كثير فيصيدون منه الشواهين والصقور والبواشق، وقلما يقدرون على البازي. وليس لصقورهم وشواهينهم من الفراهة ما لبواشقهم ...

وليس يحتاجون لكثرة أجنتهم إلى الحراس لأنه لا يقـدر أحد منهم أن يعدو على أحـد، لأن الرجل منهم إذا أنكر شيئاً من حال جنانه نظر إلى الوطء في الرمل، ثم قفا ذلك إلى مسيرة يوم ويومين حتى يلحق من سرقه. وذكر بعضهم أنهم يعرفون أثر وطء الشباب من الشيخ والأبيض من الأسود والمرأة من الرجل والعاتق من الثيب؛ فإن كان هذا حقاً فهو من أعجب العجائب.

(معجم البلدان ٣ — ١١٣).

أحمد سامح الخالدي

(١) هي جبل رأس طبيعي جيري، منعرف على البحر، كانت تجتازه الدواب بكل مشقة، إلى أن نحت جيوش الحلفاء طريقاً معبداً فيه في الحرب الأولى. وأصبحت النواقير فيما بعد الحد الفاصل بين لبنان وفلسطين

من فلسفة الحياة:

«لذة» الألم !..

قليلون جداً أولئك الذين يجدون في الألم لذة وفي الشقاء متعة ... لأن الناس اعتادوا أن يملأوا قلوبهم سروراً ونفوسهم مرحاً بما راق لهم من وسائل اللهو والعبث أو المال والبنين !!

أما أن يكون في الألم «متعة» وفي الشقاء «لذة» ... فذلك مالم يعهدوه، وذلك مالم تدركه أو يبلغه تفكيرهم

كنت أرى جمال العالم وأحس بروعة الوجود وإبداع الخالق خلال القطرات التي تذرفها عيناي ... وكنت أجد نفسي في أمتع ساعاتها وأروع لحظاتها يوم يفعم قلبي ألماً ويملأ نفسي تعاسة، فينطلق لساني من معقله ويفك قلبي من قيوده، ويبدآن يتعاونان: قلم ولسان ... ولسان وقلم - فأسمع في ساعة الألم أضعاف ما أسمع في أجمل ساعات السرور!

كنت أبحث عن الألم في كل مكان ... وهو مني جد قريب، في نفسي، في مأكلي ومشربي، في ملبسي ومسكني، في فؤادي وأحاسيسي ومشاعري ... ولكني كنت لا أكتفي بذلك وإنما أطمع دوماً في مزيد ... فأروح أبحث عنه في كل زاوية، وفي كل ركن ... وفي كل مكان!

حقاً لقد كان الألم ضالتي المنشودة .. وكانت الدموع مناي، لم أكن أطيق عنهما صبراً حتى أصبحا زميلين لي رفيقين لأحاسيسي ومشاعري!

كنت إذا ما رأيت «مشهداً» يبعث على الألم والحسرة نقمت على «البشرية» الجشعة المتغطرسة المتمثلة في هؤلاء «السادة» الذين يمتصون الدماء ويحيلون عرق الكادحين إلى ذهب يعبثون به على «الموائد الخضر» والليالي الحمر ... وابتناء مابدا لهم من الحدائق والقصور ... ثم أرثي لحال «البشرية» - البشرية التعسة المعذبة المتمثلة في هؤلاء الأبرياء الذين يفنون أنفسهم في سبيل المجتمع ويحيلون دماءهم حجارة يؤسسون بها صرح الأمة ثم لا ينالون أخيراً ... بعض ما يستحقون!

أحب الألم يا صاحبي ... حب الجبان للحياة ... والأناني لنفسه ... ولكنك لن تراني يوماً أتألم، فذلك سر خفي بيني وبين نفسي ... وإنما ستراني دائماً وأبداً ضاحكاً مسروراً، مرحاً مبتهجاً بالحياة ... لا تفارق الابتسامة شفتي ... وإنما ستردد حنجرتي ضحكاتي الرنانة المعهودة!

ما أعظم الألم ... وأمتعه!

وما أقل من يدرك قيمته — قيمته الحقة التي تزكي النفس وتطهر الروح من أدران الإثم والأنانية والجشع والأطماع ثم تضفي على الباحث عنه — عن الألم — ثوب ملاك طاهر ومسوح نبي كريم!

ليتني أتألم دائماً ... ليرتبط قلبي بالمجموع ... ويتصل بالوجود بأواصر الرحمة القوية ورباط الحنان المتين ...

بذلك أكون على اتصال دائم بالإنسانية المعذبة وأبنائها الأشقياء ... وبذلك نكون شركاء في السراء والضراء ... حتى يحب أحدنا لأخيه ما يحب لنفسه ...

ابن الشراة

نهاية شاعر

للأستاذ إبراهيم الوائلي

سل الشاطىء الوسنان والطير والزهرا
أحقاً فقدت اللحن والعطر والخمرا ؟
أحقاً ثوى فى نشوة الحلم شاعر على النيل كم غنى وكم رتل الشعرا ؟
أحقاً هوى من ذروة الأيك صادح وكانت به الأفنان حالمة سكرى ؟
سل الشاطىء الوسنان والموج ضاحك
تداعبه الأنسام ناعمة المسرى
وليل الندامى والكؤوس وكرمة معرّشة الأطراف والواحة الخضرا
وعُرساً جلته الفاتنات وزوّقت مواكبه الدنيا فتاهت به كبرا
وشهباً أطلت تسكب النور فوقه وتنثر من أكمامها الماس والدرا
وطيراً كأحلام العذارى تلاغطت وما اتخذت إلا برفرفه وكرا
وغيداً تنال الخطو زهواً وفتنة ودنيا من الآمال تستقبل البشرى:
أحقاً تثور العاصفات فتنطفى شموع ولم تبلغ طلائعها الفجرا ؟
فيا لك عرساً مرّ كالطيف مسرعاً وغاب عن الآفاق إلا رُؤى الذكرى
طوته أعاصير الخطوب وأصحرت به وهو لمّا يمسح الطل والعطرا
سل الشاطىء الوسنان أولا فخله وأحلامه والذكريات وما مرّا
فقد رجع الملاح نشوان باسماً وقد ودع الأمواج والتيه والبحرا
متى — يا لها نكباء جن جنونها — فهبت على الزورق محمومة كدْرا
وأمعنت على القلع الهوّم فانطوى من الأفق والمجداف قد شارف الجسرا
ولم تدر أن الزورق السمح مثقل بآمال قلب جازت المدّ والجزرا !

* * *

عروس القوافى نام ليلك وانتهت مساحب أذيال وريع الهوى ذعرا
وقد أصبح الريحان حولك ذاوياً ينوح أخاه الآس والزنبق النضرا
وغاب «علىّ» والنشيد وشعلة من الفكر فى ظلماء قد سميت قبرا
وعاد الخيال العبقرى قصيدة من الصمت تستوحى المجاهل والقفرا
كأن لم يكن بالأمس ترجيع مطرب ونغمة عود يسحر اللب والفكرا

* * *

علىّ . ودنيا الشعر بعدك راعها
من الهول أن تستنطق الشوك والصخرا
دعتك لليل الحائرين وبأسهم وللأمل المكلوم والمقلة الحسرى
وللعاشق الولهان والشوق عارم وللقلب يصلى من تباريحه جمرا
وللأرغن النشوان يستشرف الربى ويسكب فى أفيائها اللحن والسحرا
وللشرق تدعوه لكل جديدة وللغرب توليه الأجنحة الغُرّا
شدوت على النيل الخصيب محلقاً
ولحت على باريس تصطحب «النسرا»
وطوّفت فى الغرب البعيد فلم تدع هنالك سهلاً يستجيب ولا وعرا
ورافقت عيد «الكرنفال» مهوماً
مع الليل و «الجندول» قد واكب النهرا
وسامرت «لوجانو» تداعب غيدها
وغنيت «فينسيا» وشُطآنها الخضرا
وناجيت «كومو» والعرائس تلتقى
عليها تذيع الحب والوصل والهجرا
وودعتها صديان إلا ثمالة تسرّى بها عن نفسك الألم المرا
ترانيم توحى الذكريات نشيدها وتمرح كالأنسام عابقة نشرا
فقالوا: أديب هام بالغرب واجتوى ربوعاً غذته الروح والهم والنجرا
وأغرته آفاق وغيد وبهجة من العمر لم يبرح بها واجداً سكرى !
وما علموا أن الخيال متى سما طوى بجناحيه العوالم والدهرا

* * *

علىّ . وهذا الشعر تجرى فنونها ذقاثات قلب عز أن يجد الصبرا
وجدتك حيناً تبث اللحن راضياً فينساب من ثغر تبسم وافترّا
وآونة ترجيه حيران غاضباً وتنفث من أحشائك القطع الحمرا
فهل كنت فى الأولى من الدهر بالغاً مسارب عيش سمحة النبع والمجرى ؟
وهل كنت فى الأخرى على شرّ مورد
فأوسعت هذا العالم النظر الشزرا ؟
عرَفت بالضدين حب ونقمة وأىُّ امرئ لا يجمع الخير والشرا ؟!
عذرتك إذ تشكو الحياة ضنينة وتعرض عنها حين تعرض مزورا
وتنفى من التاريخ أحلام شاعر وتدفن فى الأوهام عيشك والعمرا
وتستقبل الأيام لا تريما بها فإن ضقت تلقاها بما يلهب الصدرا
فما أنت إلا الشاعر الحر قد أبى من الدهر مالا يقنع الشاعر الحرا

* * *

على . وما أنسى من العمر ليلة[1] صحبتك فيها باسماً كالندى ثغرا

(١) حفل الأستاذ الجليل الزيات تعرف أحد الشاعرين بالآخر فى ندوة الرسالة .

عودة الملاح التائه

يدنيا الفن ما للحزن شاعا ... وما للشعر ينفطر التياعا
وما ليحوره غاضت وكانت ... تذوب عذوبة وتشفُّ قاعا
وما لليأس يعصف بالقوافى ... وما للوحى يرتجف ارتياعا
كشكلى روِّعت بفراق ابن ... عليها أوقف العمر المُضاعا
وقدّ للأمومة لا يبالى ... أخسرانا جزته أم انتفاعا
مآتم فى مغانى الشعر أوحى ... وأى أسى عرا الوادى وذاعا
سألت فقيل «ملاح الليالى» ... تعجل عمره وطوى الشراعا
وعاد لداره تحنو عليه ... وتمحو الحزن والطلل اليباعا
إذا عزّ الوفاء فلا دواء ... يجنبنا المكائد والنزاعا
سوى الأرض الحنون فكل عان ... سينعم حين تأويه اضطجاعا
لقد عرك الحياة بجانبيها ... ومارسها انحداراً وارتفاعا
يصيبه الاضطهاد فلا يبالى ... ولا يرضى الخنوع أو الخداعا
إذا اعتنق المبادئ لم يخنها ... ليحتمل القصور أو الضياعا
توغل فى النفوس فصاغ دراً ... وأبدع فى تناغمه ابتداعا
وليس الشعر أوزانا ولكن ... سمواً فى المعانى واختراعا
تسرب فى شعاب الوهم عمراً ... وكم من حالم فى الوهم ضاعا
ووعى المرء من عبث الأمانى ... إذا تبع المعانى واليراعا

آنسة

ب . ط . ع

وباصرت فيك الأريحى خلاتقا ... وصافيتنى الطبع المهذب والبشرا
وودعت - إذ ودعتك - القلب لم يجد ... على أحد أو يعرف اللؤم والغدرا
فيا لضريح ضم منك موالسا ... ودنيا وآمالا وماجل أن يُطرى
تقدناك لولا الخالدات ولم تكن ... سوى روحك الخفاق يسترجع الذكرى

* * *

إليك رياض النيل والنيل مخصب ... يفيض على الشرق اللآلىء والتبر
عزاء القوافى الثاكلات وأنها ... دموع الفرات الحر قد شاطرت مصرا

القاهرة ... ابراهيم الوائلى

مرسى الملاح

زورق حالم أغر ... نوره يخطف البصر
بدد العمر فى سفر ... تائهاً ما له مقر
فى عباب بغير حد

أسكر البحر والمراء ... بالأغانى وبالحداء
واحتوى الظل فى الماء ... والشعاعات فى السماء
بجناحين من خيال

ساحر مشرق الصور ... إن تغنى وإن شعر
يترك الماء حيث مر ... جنة غضة الزهر
لم يطوف بها أحد

سام كله رجاء ... يتبع الموج حيث شاء
لا لشوب ولا عناء ... إن تبدت على الفضاء
بارقات من الجمال

ما شجى ربة البحر ... فى الزمان الذى غبر
مثله حينما عبر ... سابحاً هائم الفكر
يقذف الأفق بالزبد

طاف بالقطب ثم جاء ... فى زماع بلا انتهاء
وقدة القيظ والشتاء ... حول مجدافه دعاء
يجتنيه النجم حيث مال

كان لا يرهب الخطر ... أو يبالى بما يدر
عندما تسبح الفكر ... عندما يرقص الوتر
كل أيامه بدد

أذمن اليوم للفناء ... واهتدى ركبه وفاء
عجباً إنه سواء ... قاهر البحر والفناء
يسلم الأمس للكلال

آه من سطوة القدر ... آه من حسرة البشر
النبى الذى ظهر ... يجر آياته الكبر
لم يجد بما وجد

آه من خيبة الرجاء ... كل آمالنا هباء
مزهر خالد الغناء ... دون أحلامه الوضاء
ترتمى قبضة الزوال

أين يا ربة البحر ... أين ملاحك الأغر
أين من سحره بهر ... أين أمسى وأين قر
بات فى شاطىء الأبد

محمد محمد على السودانى

الأدب والفن في أسبوع

للأستاذ عباس خضر

ضريبة الكفاية :

تحدث رئيس الوزراء إلى مندوب الأهرام في مسألة شغل المناصب الكبرى الخالية فكان مما أفضى به قوله : إن ملء منصب مدير الجامعة الذي خلا بتعيين الدكتور شوقي بك وزيراً للصحة يقلق بالي … إن الكفايات في البلاد تبدو قليلة بل نادرة … وربما كانت الأنظمة القائمة في الدولة لها نصيب من المسئولية عن هذه الحال ، فالمرتبات المقررة للمناصب الرئيسية المماثلة لمنصب مدير الجامعة لا تغري الكفايات بقبول شغلها ولا بالبقاء إلى النهاية فيها .

أثار انتباهي في حديث رفعة الرئيس صراحته في تقصير الدولة نحو ذوي الكفايات من حيث المكافأة المادية التي يستحقونها ، وذكرت بذلك أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية .

يظن كثير من الناس أن هؤلاء الأعضاء يتناولون مرتبات كبيرة تناسب فخامة هذه العضوية ومكانتهم في عالم الأدب والثقافة ولا شك أنهم يدهشون إذا علموا أن عضو المجمع يأخذ مكافأة شهرية قدرها تسعة جنيهات وقروش — يضاف إليها جنيهات يشترط ألا تزيد على خمسة إذا عمل العضو في اللجان المختلفة فوق جلسة المجمع العادية ، واللجان ومكافآتها تكون في أثناء الدورة فقط … ويعامل نفس المعاملة أستاذ الجيل معالي رئيس المجمع !

ومعاملة أعضاء مجمع فؤاد الأول على ذلك النحو لا نظير لها فيما تنطوي عليه من غبن . ولسنا بحاجة إلى ذكر مرتبات أعضاء البرلمان فهي معروفة ، ولندع البرلمان وننظر إلى هيئة علمية كجماعة كبار العلماء ، فإن أعضاءها يتناول كل منهم ستين جنيها في الشهر والدولة لا تقصر في إثابة كبار موظفيها على جلسات اللجان المختلفة فهل ذنب أعضاء المجمع أنهم ذوو حياء .. ؟ وهل تنتظر الدولة حتى يؤلفوا من بينهم « رابطة » تقدم مطالبهم وتدافع عن حقوقهم ؟

إنه يطلب من المجمع أن ينجز كثيراً مما بين يديه من المهام ، ولكن لا يبذل للأعضاء الجزاء المادي الذي يوازي هذه المهام ، فكيف يتحمسون بالمجان ؟

إن أعضاء مجمع فؤاد الأول اختيروا من ذوي الكفايات في الآداب والعلوم والفنون ، ولكي تجني البلاد ثمرات الكفاية يجب أن تؤدي الدولة ضريبتها .

المرشحون المستقلون ومناهج التعليم :

نشرت جريدة الأهرام أن المرشحين لانتخاب مجلس النواب المستقلين اجتمعوا برياسة الأستاذ عبد الحميد عبد الحق باشا ، ورأوا أن يضعوا لهم برنامجاً كبرامج الأحزاب . وعرض عليهم عبد الحميد باشا البرنامج الذي أعده ليكون عهداً على كل مرشح مستقل إذا ما نجح في الانتخاب ، فوافق الجميع عليه ، والذي يهمنا من هذا البرنامج هو المادة الثانية منه ، ونصها : « جعل التعليم في جميع درجاته بالمجان مع تعديل البرامج تعديلا يكفي لتخريج شبان مسلحين بالمرقة الضرورية لاقتحام الحياة الحرة » هذا كلام طيب ، فقد أصبحت مجانية التعليم من أماني البلاد في الإصلاح الداخلي ، ولا ينبغي أن يشترى التعليم كما يشترى الكراث والبصل ، كما قال الدكتور طه حسين . وحسن أيضاً أن تعدل البرامج التعديل المنشود ، ولكن للمادة السابقة من برامج المرشحين المستقلين بقية هي : « وأن يضع هذا البرنامج رجال الأعمال لا موظفو وزارة المعارف » .

ومعنى ذلك أن تلقي وزارة المعارف مراقباتها الفنية وتسرح رجالها ، لتفسح المجال لرجال الأعمال من مديري المصانع ورؤساء (الورش) وغيرهم ، كي يضعوا خطة التعليم ، فتنشيء بدعواتها « ورشة لتعليم اللغة العربية » و « معملا لاستخراج المواد الاجتماعية » و « شركة تدير العلوم الطبيعية » وهكذا .

ولم لا وقد أخفق موظفو المعارف في وضع البرامج الكفيلة بتخريج شبان مسلحين بالمرقة .. الخ ؟

ولماذا ننتظر حتى يفرغوا من تجاربهم وحتى تتطور إلى أحسن منها ؟ وعلى ذلك يجب إجلاؤهم عن شؤون التعليم دون مقاومة .

ولست أدرى لم سكت برنامج المرشحين المستقلين عن الناحية الصحية مثلا . أليست الصحة العامة على غير ما يرام ؟ وكلنا يعلم حال المستشفيات وعدم العناية بالمرضى فيها ، فلم إذن لا يتولى رجال الأعمال هذه الشئون بدلا من الأطباء ؟ !

لا شك فى أنهم يقصدون تغليب الناحية العملية فى التعليم والاستئناس بآراء من مارسوا الأعمال الاقتصادية ، ولكن ليس معنى هذا أن التعليم كله اقتصاديات وصناعات ، وأن يتولى الأمر غير ذويه . ثم أريد أنا أيضاً أن أتدخل فيما لست من أهله ، فأسأل — وما أنا من المشتغلين بالسياسة — كيف يكون المستقلون مستقلين وهم يتجمعون هيئة لها لجنة تنفيذية وبرنامج ؟ أليس هذا شأن الأحزاب ؟ وعلى ذلك نرى حزبا جديداً هو « حزب المستقلين ! »

ليلة من ألف ليلة :

يعمل الآن الأستاذ زكى طليمات فى إخراج مسرحية « ليلة من ألف ليلة » لتمثلها الفرقة المصرية على مسرح الأوبرا الملكية ابتداء من أول ديسمبر الحالى . وهى مسرحية زجلية يتخللها غناء ، فهى من نوع الأوبريت ، كتب حوارها الأستاذ بيرم التونسى . ويرجع أصل هذه الرواية إلى رواية « قسمة » الإنجليزية التى ألفها المستر ادوارد كنبلوش ومثلت فى لندن سنة ١٩١٤ . وترجمت بعد ذلك إلى الفرنسية ، ثم ترجمها من الفرنسية إلى العربية المرحوم خليل مطران باسم « القضاء والقدر » ومثلتها فرقة عكاشة فى مسرح حديقة الأزبكية سنة ١٩٢٠ ، وقام بالدور الأول فيها وهو دور « حسن الشحات » المرحوم محمد بهجت ثم أخرجتها الفرقة المصرية بعد ذلك باسم « حسن الشحات » وقام بالدور الأول حسين رياض .

أما الرواية الزجلية فقد أجرى لها بيرم التونسى اقتباساً جديداً وكتبها بالزجل وأخرجها عزيز عيد ومثل فيها دور حسن الشحات . وأخيراً تناولها الأستاذ زكى طليمات فأضاف إليها قطعاً غنائية مندمجة فى مواقفها وبهذا حولت إلى (أوبريت) وقد وضع ألحانها أحمد صدقى ، وتغنى فيها المطربة شهر زاد (فى دور حسن الشحات) ويغنى كذلك كارم محمود فى أحد الأدوار . أما دور « حسن الشحات » فله قصة من مفاجآتها أن أعلن أن يوسف وهبى سيمثل فيها . فقد عرض عليه أولا أن يقوم بدور حسن الشحات

كشكول الأسبوع

□ انتهت يوم الإثنين الماضى مدة الترشيح إلى الثلاثة الكراسى الخالية بمجمع فؤاد الأول للغة العربية ، والذين رشحوا هم : واصف غالى باشا ومحمد توفيق دياب بك ومحمود تيمور بك وعبد الحميد العبادى بك وعبد السلام الكرداني بك والدكاترة محمد خليل عبد الخالق بك وأحمد عمار بك وكامل حسين . وقد حددت جلسة ٥ ديسمبر الحالى لانتخاب ثلاثة أعضاء من المرشحين .

□ قررت وزارة المعارف إنشاء مراقبة عامة لشؤون اللغة العربية تختص بكل ما يتصل بدراسة اللغة العربية فى معاهد التعليم المختلفة . ويتضمن هذا القرار النص على إلغاء « اللجنة الدائمة لترقية اللغة العربية » التى كان من اختصاصها تحرير الكتب الأدبية للمطالعة الحرة بالمدارس ، إذ أصبح هذا من عمل المراقبة الجديدة .

□ كتب الدكتور طه حسين بك مقالا فى الأهرام عن المرحوم المازنى اقترح فيه على وزير المعارف أن يطلب من مجلس الوزراء تقرير معاش لأسرة الفقيد وتعليم أولاده بالمجان . وقال عميد الأدباء فى ختام مقاله : إذا لم يفعل هذا وزير المعارف فإنى أرفع القصة كلها إلى جلالة الملك عائذاً به من أن يتعرض أبناء الأدباء الذين أنفقوا حياتهم فى خدمة الثقافة للفقر والجهل والمرض .

□ استأنف الأستاذ زكى طليمات سعيه فى إنشاء فرقة نموذجية من خريجى معهد التمثيل العالى ، وهو كبير الأمل فى نجاح المشروع على يد معالى العشماوى باشا وزير المعارف ونصير الفن ، وقد طلب إلى معاليه اعتماد عشرة آلاف جنيه لإنشاء الفرقة .

□ قال لى الأمير على بن عبد الكريم شقيق سلطان لحج : إن نسبة الأميين فى لحج لا تزيد على ٣٠٪ والأمير نفسه شاب ذو ثقافة ممتازة .

□ يتساءلون فى المذياع من استدعاء الفنى الإيطالى لموسم التمثيل الأجنبى فى مصر وزيادة الإعانة من أجله ألفى جنيه . إنه منظر عالمى تتهافت الدول الكبرى على الاتفاق معه للغناء والتمثيل على مسارحها ولكن فات هؤلاء أن تلك الدول تطرب شعوبها لمثل هذا الغناء على خلاف شعبنا فى ذلك .

□ أعلن يوسف وهبى أنه يعطى ٥٠٠ جنيه لمن يشاهد مسرحيته « بيت الطاعة » ولا يضحك . فهل أعجبت الفرقة إلى منافسة شكوكو ؟

□ كان قد حدث خلاف بين أحد مخرجى الأفلام وبين رئيس تحرير مجلة فنية ، فنتج من ذلك اشتداد النقد والحملة على المخرج وأفلامه . ثم حدث بعد ذلك أن أصلح بين الطرفين باسم الأخوة المأمونية ، فتحول « النقد المر » عن العسل ... وأعلن ذلك فى المجلة !

□ أصدر وزير الأشغال قراراً بأن يطلق على طائفة من شوارع القاهرة أسماء أعلام عربية قديمة ومصرية حديثة ، ومن الأخيرة الشيخ مصطفى عبد الرازق وعلى الجارم .

□ وافق مجلس الوزراء على عقد الدورة الثانية لحلقة الدراسات الاجتماعية للأمم العربية فى القاهرة خلال شهر ديسمبر القادم . وستخصص هذه الدورة لدراسة وسائل تنظيم الخدمات الاجتماعية .

ووافق عليه ، ولكنه رأى أن الدور يحتاج إلى جهد كبير وخاصة حفظ الزجل ، وهو لا يريد أن يتعب نفسه في أدوار جديدة ، فحسبه رواياته التي مثلها قديما والتي لا تكلفه غير الاستذكار اليسير ، وهو يقتصر على هذا الاجترار في النهوض بالمسرح المصري في هذا الوقت ! وجعل يوسف وهبي يماطل ويتخلف عن حضور التجارب ، حتى أدى ذلك إلى أزمة في الفرقة ، وقدم زكي طليمات استقالته ثم عدل عنها بعد أن تم الاتفاق على أن يقوم بالدور فؤاد شفيق . وعلى ذلك صار يوسف وهبي لا علاقة له بهذه الرواية إلا أنه المدير العام للفرقة التي ستمثلها ، وبهذا الوصف وحده ينشر الإعلانات بأنه يقدم « ليلة من ألف ليلة » ! وأرجو أن أتمكن من مشاهدة المسرحية والكتابة عنها في الأسبوع القادم

فلم الأسبوع :

هو فلم « أوعى المحفظة » الذي عرض أخيراً بسينما الكورسال وهو تأليف وإخراج وتمثيل محمود اسماعيل . . واشترك معه في التمثيل شكوكو وتحية كاريوكا وحسن فائق ولولا صدقي وآخرون .

وتقع حوادث الفلم في مكان واحد هو فندق « إيزيس » فبعد أن رأينا سفرت (شكوكو) يبيع دكانه بخمسمائة جنيه ، إذ أغراه بذلك عبده الإوز (محمود اسماعيل) ليشترك معه في مغامرات السرقة والاحتيال ، بعد أن رأينا ذلك سريعا) في إحدى (الحوارى) انتقل العمل بالفندق حيث نزل الاثنان وقد اتخذ عبده الإوز اسم صادق بك الواردى من رجال الأعمال ، وظل الثاني على اسمه (سفرت) على أن يكون تابعاً له . ويلتقيان بالفندق بفتاة تتظاهر بالغنى والحسب ، ثم يتبين أنها زميلة محتالة واسمها شناكل (تحية) وتنضم إليهما في العمل ، ويتفق الثلاثة على سرقة ماسة ثمينة من أمير هندي نازل بالفندق ، بوساطة شناكل التي اتصلت به . ثم يسيرون في الخطة الموضوعة حتى ينكشف أمرهم ، وينكشف الأمير الهندي أيضاً عن زميل لهم محتال ، وما الماسة إلا شيء مزيف .

ويريد المؤلف المخرج أن يخرج بالحوادث قليلا عن الفندق ؛ فماذا يصنع ؟ ينصب في البهو مائدة القمار ويظهر عليها فتاة أنيقة (لولا صدقي) ، ويستمر المؤلف المخرج في سيره فيجعل الفتاة الأنيقة (بنت الذوات) تتعلق بسفرت (البلدي) الأبي الذي يهجم على المائدة ليلعب بنصف ريال فيسخر منه الجميع ويهم صاحب الفندق بطرده . وللمخرج المؤلف في عقد هذه المحبة حكمة ، يريد كما قلت أن يخرج الحوادث من الفندق قليلا ، وهو يشعر أيضا أن الفلم اقترب من النهاية ولم يسمع المشاهدون غناء ولم يروا رقصاً ؛ ولذلك كله عقد تلك الصلة ليخرج شكوكو مع الفتاة في سيارتها حتى يصلا إلى مكان قبيلة من الأعراب حيث ترقص هناك نبوية مصطفى وتغني سعاد مكاوي ، ويشاركهما شكوكو .

وقد ظهر صادق بك الواردى يحاول التقرب من الفتاة المتظاهرة بالغنى ، وهي كذلك ، وانتهت المحاولة إلى المحادثة والمنازلة ، وطال ذلك ، ثم إذا هما يظهران التعارف الفجائي ، فيعرف كل منهما الآخر على أنه زميل قديم ، فعلام كان كل ذلك العناء إذن ؟ ولماذا لم يتعارفا من أول الأمر ؟

وفي المنظر الأخير قبض على جميع المحتالين وسيقوا إلى السجن ماعدا سفرت مع أنه شارك في حوادث السرقة . . وللمؤلف المخرج في هذا أيضاً حكمة ، وهي أن يظهر سفرت في مظهر البطل المحبوب الظافر بحب الفتاة الأنيقة بحيث يكون هذا حسن الختام !

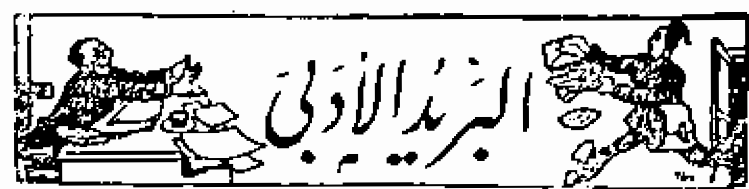
ولا شك أن القصة لا تشويق فيها ولا غاية لها ، بل إن الفلم يعرض السرقة والقمار عرضاً إن لم يكن محببا فيهما فهو غير منفر منهما . فلم إذن هي ؟ المعتاد في أمثالها أن تحشى بما يسترها من نحو غناء أو رقص ، ولكنا هنا لم نر إلا منظراً قصيراً جداً فيه رقصة بدوية تافهة وغناء غير مطرب ، على أن هذا المنظر كان بمثابة رقعة في الفلم . ولست بحاجة للإشارة إلى فقر الفلم في المناظر فكل شيء يجري في الفندق حتى مله النظر ، وانعدم الجمال حتى في الممثلات ، فالفتاة التي قدمت على أنها أنيقة حسناء لا حسن فيها وفمها لا يفضل فم إسماعيل يس — وتحية كاريوكا لم ترقص !

الواقع أن الفلم قصد به عرض شكوكو . وشكوكو يكرر حركاته وكلامه المألوفة مثل (وحشة دي !) و (يا خرابي !) وقد أكثر من الكلمة الأخيرة إلى درجة أنها كانت تصلح اسماً للفلم بدل (أوعى المحفظة) إلا أن يكون المراد التحذير من أن يفقد شيء من المحفظة في مشاهدة الفلم .

وليس هناك شيء ظريف غير حسن فائق الذي كان يمثل دور المخبر السري بالفندق ، وهذا الممثل يكون ظريفا في الأدوار التي تلائم شخصيته وكان كذلك في هذا الدور ، وإن كان الدور نفسه رقعة أخرى في الفلم .

ومحمود إسماعيل ممثل قدير في أدوار الشر . ولكنه أحد الذين يأبون أن يقتصروا على ما يحسنون ، فيعمدون إلى التأليف والإخراج ليجمعوا الفن من أطرافه !

عباس خضر



يسطون على أدب الزيات ثم لا يحاورون !

بالأمس سطا السالطون على أدب الزيات في لبنان ، واليوم يسطون على هـذا الأدب مرة أخرى في العراق . ولـكن اللص العراقي الفاضل لم يكن في سطوه من اللصوص الشرفاء . ولو كان منهم لتناول قلمه وراجع ضميره وكتب كلمة يرد بها على ذلك المقال الذي زف إليـه مجداً أدبياً هو بريء منه ، لأنه مجد أدبي زائف ، ترفع عن زيفه الغطاء ! أما ذلك المقال فقد نشرته جريدة « النهضة » العراقية بعددها الصادر في ١٦ تشرين الثاني سنة ١٩٤٩ بقلم أديب حرم نعمة الاطلاع فاندفع قلمـه بغير زمام ... هـذا الأديب هو السيد خالد ياسين الهاشمي الذي راح يؤكد لقراء « النهضة » أن هناك مقالا نشر في غضون عام ١٩٤٨ لأديب عراقي اسمه عبد الخالق عبد الرحمن تحت عنوان « يوم الهجرة » في جريدة « النـداء » العراقية ، وأن هناك فقرات قد نقلت بنصها وفصها من هذا المقال إلى مقال آخر كتبه الأستاذ الزيات في العـدد (٧٥٢) من « الرسالة » تحت عنوان « من وحي الهجرة » وهو العـدد الصادر في ٣١ أكتوبر سنة ١٩٤٩ ...

أما هذه الفقرات فهي : « كان يوم الهجرة تشريعاً من الله في حياة الرسول الفرد للمستضعف إذا بغي على حقه الباطل ، وطغى على دينه الكفر ، ليعرف كيف يصبر ويصابر ، وكيف يجاهد ويهاجر ، حتى يبلغ بحقه ودينه دار الأمان فيقوى ويعز » و ... « حمل محمد رسالة الله وهو فقير ضعيف ، وحمـل أبو جهل رسالة الشيطان وهو غنى مسلط ، فحول مكة الشرك جبـلا من السعير سد على الرسول طريق الدعوة فكان يخطو على أرض تمور بالفتون وتفور بالعذاب وتتفجر عليـه من كل مكان ستاهة أبي لهب بالأذى والمون والمناوأة والمعارضة ، وكل قرشي كان يومئذ أبا جهل أو أبا لهب إلا من حفظه الله . واتفق كفار مكة ومشركوا الطائف في أذى الرسول فعذبوه في نفسه وفي أهله وفي صحبه ليحملوه على ترك هـذا الأمر فما استكان ولا لان ولا تردد ، وحينئذ تدخل الشيطان بنفسه في دار الندوة فقرر القتل ، وتدخل الله بروحه في (غار ثور) فقدر النجاة » .

بعد هذا قال حضرة المطلع الكبير السيد خالد الهاشمي : أن هـذه الفقرات وردت في مقال عبد الخالق عبد الرحمن في العام الماضي ، ثم وردت بنصها وفصها في مقال الأستاذ الكبير الزيات في هذا العام — ثم عقب على هذا الاكتشاف الخطير بقوله :

« ولو كان حديث الأستاذ الـكبير الزيات قديم عهد بالنشر لجاز لنا اتهام الأستاذ عبد الخالق عبد الرحمن بالسطو والسـرقة ، ولـكن هـل سطا الأستاذ الزيات على مقال عبد الخالق ، أم ان ذلك من توارد الخواطر » ؟

ونحن نقول لحضرة المطلع الكبير إن حديث الأستاذ الزيات قديم عهد بالنشر ، فقد ظهر في « الرسالة » منذ أعوام — ولو كان حضرته من الذين يقرأون لعلم أنه قد كتب في عدد الرسالة الممتاز الصادر في ٣ مارس سنة ١٩٤٢ تحت عنوان « يومان من أيام الرسول » ، وقد اقتبس الأستاذ الزيات هذه الفقرات من مقاله القديم ثم ألحقها بمقاله الجديد . أما المقال القديم فيستطيع من لا يملك المجلد الذي ظهر فيه أن يطلع عليه في المجلد الثاني من كتاب « وحي الرسالة » ص ٢٦٢ ومعنى هذا يا حضرة المطلع الكبير أن السيد عبد الخالق عبد الرحمن لص ، ولكنه ليس من اللصوص الشرفاء على كل حال ، فلو كان منهم لكشف عن وجه الحق حين قرأ مقالك العظيم ، ولـكنه ـ سامحه الله ـ آثر أن يرتدي أثواب مجد أدبي زائف في طوايا الظلام !

إنني أرد بهذه الكلمة على حضرة المطلع الكبير لأنه خصني بالحديث في بداية مقاله ، بمناسبة تعرضي لمن سطا على أدب الأستاذ الزيات في لبنان — وإذا كان لي من نصيحة أوجهها إليـه فهي أن يعلم — قبل أن يتهجم ! !

وللأديب العراقي الفاضل السيد توفيق تموم الذي بعث إلي بمقال حضرة المطلع الكبير طالباً إلي أن أعقب عليـه ، خالص الشكر وعاطر التحية .

أنور المعداوي

أمي الإبياري :

عرفتك ناقد البصيرة لا عم البصر ، فلا غرابة أن تقرأ ترجمة كتاب النفس لأرسطو ثم تكتب عنه كتابة العارف ، وقد امتلأت بداه من الموضوع ، فحرك القلم ، وجرى بالفكر على صفحات الورق . كأنك قد ملكت العنان ، حتى خيل إليك أن جمهور القراء قد عرف ما عرفت ، وملك ما ملكت .

وتوقعت كما توقع الناس معي أنك سوف تكتب عن الكتاب كما رثيت الشاعر ، ولكنك آثرت التبيين ، فحمدت وحمد الناس لك هذا البيان .

وقد اختلفت مذاهب القوم في النقل ، أيكون ذلك عن القديم الخالد أم الجديد الحي النابض ، فنقلوا عن سوفوكليس كما نقلوا عن جيته ، وليس بين القوم خلاف لأن القديم والجديد متعلقان بما يكون ويفسد ، ويولد ويموت ، ويظهر ويزول ؟ أما روائع الفكر فإنها تخرج عن دائرة الزمان وتتصف بالخلود . وكتب أرسطو خالدة على الزمان ، وكتابه في النفس من أخلد آثاره وأشدها تجدداً مع تجدد الأيام .

قال في النفس كلته ، وزعم أن النفس صورة الجسم ، وتناقل الشراح كلامه وزادوه تفسيراً ، وتعددت المذاهب من لدن أفلاطون والشائين إلى وليم جيمس وبرجسون ، فهل حل القدماء مشكلة النفس أو كشف المحدثون عن أسرارها ؟

لقد خيل إلي وأنا أقرأ كلمتك أنك مطمئن إلى رأى المعلم الأول : ولا عجب فهو صاحب المنطق ومبدع القياس ورب الجدل . ثم قلت لنفسي : كيف استطاع اللغوى أن ينفذ إلى أسرار النفس ، وكيف عرف الأديب حقيقة أمرها ، وقد خفيت من مؤثر الحنكة وطالب المرنة .

الآن عرفت السر . فأنت صاحب بيان ، كهذه الطائفة التي ظهرت في بلاد اليونان تعلم هذا الفن للناس يؤثرون به في العقول ويخلبون الألباب . والبيان سر يخفى على الشرح والبيان . وقد قيل بحق « إن من البيان لسحراً » . وقالت العرب تصف الأديب إذا نثر فسحر ، والشاعر إذا نظم الشعر - إنه حلو النفس . وقالوا أيضاً . طويل النفس وقصيره ، كما قالوا : هذا شاعر عبقري الأنفاس .

وهل الكلام من جنس الطعوم والمشمومات حتى يوصف بهذه الأوصاف ويحمل على محل المحسوسات ؟

وأنت تعلم أن الأدب من باب المعاني وعالم الروح ، فكيف يقال نفَس الأديب . أم تراهم حين عجزوا من التعبير نزلوا إلى التشبيه ، وانصرفوا عن التنزيه ؟

أم النفْس بالسكون من النفَس بالفتح ، فانتهت الحركة إلى السكون ؟ ...

ومن غرائب اللغات وأسرارها توافق معنى النفس في اليونانية والعربية . وأصلهما في اللسانين مادى ثم أصبح من المنقول .

ولكننا نعرف النفس لأننا نشم عبيره ، فكيف السبيل إلى إدراك النفس ، وما معنى نفَس الأديب ؟

أحمد فؤاد الأهواني

إلى الأستاذ الزبيري

قرأت مقالك عن الحرية وأعجبت به لما صادف في نفسي من المجاوبة والاتفاق في الرأي . وكنت قد قرأت لك قبل ذلك مقالا آخر عن الفلسفة الوجودية . وأحسن أن يكون من المفيد لي ولقراء الرسالة الغراء أن تعرض لموضوع الحرية مرة أخرى من وجهة نظر المذهب الوجودي أولا ، وأن تكشف بوضوح عن الرابطة التي تصل بين الحرية والجهل ثانياً حتى تتأيد نظريتك بالتحليل والتعليل الكافيين . وتفضل بتحية المعجب

(كلية البوليس للكية) طاهر الكراني

ليست آخر ما نظم :

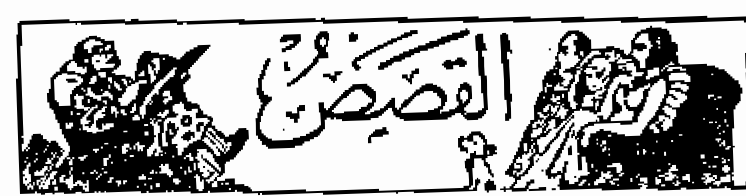
نشرت جريدة « الأهرام » الغراء في عددها الصادر صبيحة الأحد ٢٧ / ١١ / ١٩٤٩ قصيدة عصماء من درر فقيد الشعر المنثور له « علي محمود طه » عن محمد علي الكبير مطلعها :

من هذه الروح وهذا الجبين يضيء في مصر منار السنين

وقد قدمت صحيفتنا الكبيرة هذه القصيدة بهذه المقدمة : « نظم الشاعر الكبير علي محمود طه هذه القصيدة وهو في فراش مرضه ، وقد أتمها قبل موته بيوم واحد (كذا) وكان قد أعدها ليساهم مع البلاد في الاحتفال بالذكرى المئوية لوفاة منشئ مصر الحديثة ساكن الجنان : محمد علي الكبير » .

غير أن الذي أعرفه وكان يجب أن تعرفه الصحيفة الكبيرة على وجه التخصيص أن هذه القصيدة ليست آخر ما نظم الفقيد الكبير (بيوم واحد) . ولكنها قصيدة قديمة في حساب السنين تبلغ من الزمن عمر ديوانه الثالث « زهر وخمر » الصادر في عام ١٩٤٣

« صادق »



الأغلال

أقصوصة عراقية

للأستاذ شاكر خصباك

— أنظرى إلى ذلك الحال يا سعاد ... إنه يتعقبنا على دراجته شأنه كل يوم .

قالت رفيقتي إحسان هذا وهي تشير إلى الحال الذي اعتاد أن يستقبل أفواجنا كلما غادرنا المدرسة . فقلت في عدم اكتراث دون أن أحول إليه أنظاري : مالنا وله ؟!

فنظرت إلى من زاوية عينيها وانفرجت شفتاها عن ابتسامة ماكرة . وفجأة اشتد ضجيج جرس دراجة وراءنا ، فالتفتت إحسان خلفها في حركة سريعة ، ولكنني لبثت متجهة بأنظارى متجهة إلى الأمام دون أن تطرف عيناى . ومرت لحظة خيل إلى أنها قاربت الساعة والجرس يواصل صخبه ، ثم رأيت الحال ينطلق بعجلته أمامنا فتبعته عيناى في حنق وغيظ ، وتناهى إلى في حنق وغيظ ، وتناهى إلى صوت إحسان كريهاً ثقيلا وهي تسألني متخابثة : ألم تلاحظى شيئاً على هذا الحال يا سعاد ؟!

فأجبتها في صوت حاولت أن يكون هادئاً : كلا مالى وله ؟! لماذا يجب أن ألاحظ أمثاله ؟

فندت عنها ضحكة مثيرة وأجابت بلهجة خبيثة : من الغريب أن يخفى عليك غرض تلكؤه الريب .

فهتفت في خشونة : ما هذا الكلام السخيف ؟! أمكلفة أنا برصد حركات كل من يمر بي في الطريق ؟! هذا شأنك دائماً ... تشغلين نفسك بالتوافه .

فالتفتت إلى في استياء وهتفت في تحد : بل إنك لتتظاهرين بعدم الفهم . إن ذلك الحال يحبك ما في ذلك ، وما حضوره ساعة انصرافنا من المدرسة إلا ليراك . .

ومكثت لحظة ثم واصلت القول وهي تضحك في سخرية : إلا ايراك من دون الطالبات جميعاً !

فصحت في وجهها بلهجة ثائرة : هكذا أنت دائماً .. تحسدين غيرك من الفتيات . حسناً ، إنى جميلة محبوبة وكثير من الفتيان الممتازين يعجبون بي أراقك ذلك أم لم يرقك ، ولن تجديك هذه السخرية السخيفة نفعاً .

ثم ألقيت عليها تحية الانصراف في غضب وابتعدت عنها موسعة الخطى . وحين بلغت الدار وصفقت الباب ورائى تنفست الصعداء كأنى ألقيت عبئاً ثقيلا عن كاهلى . وتناولت طعام العشاء بدون شهية وذهنى مشتت تائه ، ولما أويت إلى الفراش واستعرضت حوادث النهار غمرتني آلام عنيفة حادة . وأغمضت عيني محاولة إبعاد صورة الحال عن مخيلتي ، لكنها ظلت تتراءى لي في بشاعة ، بدوى جرس دراجته كأنني في سوق الحدادين .

استيقظت في الصباح منقبضة الصدر واهنة القوى ، وتبدت لي المدرسة شبحاً مفزعاً مخيفاً . ولم أستطع طوال ساعات الدروس أن أرفع أنظارى إلى إحسان شأن من ارتكب فعلة منكرة تورده موارد الخجل . وما أن أعلن الجرس انتهاء الدروس حتى اجتاحني شعور بالضعة والهوان . وعتبت من صميم قلبي لو أن « الفراش » سها عن دق الجرس ودعا الدرس الأخير يمتد بنا ساعات أخر . كنت أود أن أتجنب رؤية الحال بأى ثمن كان ، فقد كان يتمثل في ذهني فأحس بالاشمئزاز وتتملكني رغبة في الفرار والاختباء من الأنظار .

حاولت أن أختفى من عيون رفيقاتى حالما اجتزت باب المدرسة فأسرعت الخطو وأنا أتلفت حولى في خجل وحدة ومتاب . وكان الحال يتعقبني بدراجته تارة يدنو مني وأخرى يبتعد عني . ولمحت شاباً يمشي في موكب من زملائه الطلاب بحلته البهية ولباسه الأنيق ، فهممت أن أجرى إليه وأحتمى به ، ولكن سرعان ما تذكرت أنني لست سوى معجبة خجولة لا يعرف عنها أي شيء . فعضضت على شفتي في خيبة يمازجها الغيظ ، وتابعت سيرى في عجلة وارتباك وأنا أغمغم في حسرة : يا للحظ العاثر !

* * *

ذاعت قصة غرام الحال بي وتلقفتها ألسنة زميلاتي بالتهليل والترحيب ، فلابد للألسنة أن تثرثر في موضوع ما . ولا يداخلني شك أن إحسان قامت بالنصيب الأوفر في نشر القصة ، لا سيما

وأن علاقتنا انفصمت عراها إثر ذلك اليوم . ولم يكن بوسعي أن أحتمل البسمات الشامتة التي أحدثت الجهها على شفاه زميلاتي ، أو أن أطيق النظرات الساخرة التي بدأت أقرأها في عيونهن ، وكم تمنيت لو تنشق بي الأرض وتبتلعني حين يعلن الجرس أوان الانصراف وتنطلق أفواجنا إلى الشارع ، فتتأهب زميلاتي للتمتع بمنظر الحال العاشق . كنت أحس أنني أوشك أن أذوب خجلا وذلة ومهانة . وكنت أضرع إلى الله أن يقع له حادث ... حادث يعوقه عن الحضور . لكنه ظل يواظب على الحضور في الموعد المعين كل يوم كأنه المتدين يؤدي الصلاة في ميقاتها ! ولم يكن باستطاعتي أن أتخذ أي إجراء ضده لأنه لم يتحرش بي أبداً . لكن أعصابي بلغت من التوتر ذات يوم حداً عنيفاً ، فلم أشعر إلا وأنا أنفجر صائحة في وجهه حين اقترب مني بدراجته : « ألا تكف عن ملاحقتي وتنقذني من شكلك القذر ودراجتك الكريهة ؟ ! » فاصفر لونه واحمر ، وواصل بعجلته في هدوء دون أن يتفوه بلفظ واحد ! وكانت عيناه تلمعان ببريق كئيب وشفتاه ترتجفان في انفعال شديد ! ...

وأقبل اليوم التالي وإذا بالمشهد اليومي يفقد إحدى عناصره ولأول مرة ، وهو دراجة الحال ! وشعرت بسرور وارتياح مشوبين بقلق خفي . وخيل إلى أنني تخلصت من مرآه نهائياً ، ولكن سرعان ما تبدد ظني ، إذ لمحته منزوياً وراء إحدى أعمدة الشارع فأحسست بقليل من الكدر . وكان على غير عهده ، يرتدي جلباباً نظيفاً وسترة جديدة ، وينتعل حذاء لامعاً ، ويضع فوق رأسه طاقية مزركشة . وكان وجهه نظيفاً كمن اغتسل منذ برهة وجيزة وما كاد نظره ينالني حتى انطلق يحدق في كالمأخوذ . ولم أحتقر لنظراته وقتاً شيئاً كالذي كنت أحسه من قبل ، بل خالجني شعور من يقع بصره على مشهد يبعث على الشفقة والرثاء . لكن هذا الشعور لم يدم طويلا ، فقد عاودني في الأيام التالية الإحساس بالغيظ والحنق كلما مررت به في ركنه المعهود ، ولمحته منزوياً في ترقب وشوق . وكنت أصمم كل يوم على الامتناع عن ملاحظته حين مروري بموضع انتظاره ، ولكن عيني كانت تنجذب إلى تلك الزاوية بالرغم مني . واستفزني هذا الحال أشد الاستفزاز فعقدت العزم على ارتداء النقاب . ومع أن فضول زميلاتي في مراقبته كان قد فتر غاية الفتور حتى لم يعدن يأبهن لأمره ، لكن رغبة شديدة ألحت علي بإخفاء وجهي ! ولا أدري كيف فشلت في قهر تلك الرغبة مع أنني كنت على رأس الطالبات الثائرات على الحجاب ، بل الداعيات إلى نبذ الملاءة لا البرقع فقط . وقلت لنفسي في شيء من العناد والتشفي وأنا أبارح المدرسة والبرقع يحجب وجهي لأول مرة : « لن يستطيع أن يراني بعد الآن » . وصح ما توقعته ، فقد مررت به وهو منزو في ركنه المعهود فلم يعرني التفاتاً ، ولبث يبحث عني بين الطالبات بعينين مشوقتين .

ويبدو أنني أثرت قلقه بتصرفي الجديد ، إذ برز في اليوم التالي من ركنه المعهود وظهر على الرصيف وهو مسند الظهر إلى العمود الضخم . وكان يفحص أسراب الطالبات بوجه متقلص العضلات وعينين مضطربتي النظرات . وأحسست بالسرور والارتياح حين مررت به ورأيته جاداً في البحث عني بين فتيات التلميذات دون أن يعثر لي على أثر .

مرت أيام ثلاثة على ارتدائي النقاب والحال ملازم لموضعه على الرصيف يتفحص وجوه الطالبات في قلق ولهفة وكنت قد اعتدت على النقاب بعض الشيء خلال تلك الأيام بعد أن كابدت في اليوم الأول من ثقله على وجهي أشد الضيق وأحسست أن أنفاسي تكاد تختنق . وفي ظهيرة اليوم الرابع حدث ما لم أكن أتوقعه ، فما كدنا نتدفق من باب المدرسة كالسيل حتى فوجئت به فوق عجلته وقد عاد إلى زيه القديم ؛ فبدى قذر الملابس عاري الرأس حافي القدمين ! ومضى يخترق أفواجنا في تؤدة وهو يتمعن في وجوه الطالبات في اهتمام . وكان يصل إلى رأس الشارع فيقفل راجعاً إلى باب المدرسة ، ثم يعاود السير إلى رأس الشارع ثم يعود من حيث بدأ ، إلى أن احتجب عن بصري . وغمرتني فورة من العواطف المتضاربة ، وأنا أرقبه يروح ويجيء فوق عجلته والمرارة تفيض من قسماته . وأحسست بلذة يشوبها كدر وارتياح يعكره قلق مبهم .

ورأيته ساعة العصر وهو يتجول بين جموعنا في خيبة وقنوط والكآبة تلف ملامحه بغشاء كالح . وكنت متجهة إلى الدار وأنا خالية الذهن من أية فكرة معينة . لكنني أحسست بغتة برغبة قوية في إقتفاء أثره . ولم أتردد في تحقيق تلك الرغبة طويلاً ، إذ شرعت أتلكأ في السير حتى أصبحت في أعقاب الطالبات . وتسنى لي بذلك أن أرصد حركاته في حذر واحتراس . فما أن أيقن من خلو المدرسة من التلميذات حتى عاد أدراجه يسوق عجلته في يأس

وخذلان . وبلغ دكان لكراء الدراجات فترجل عن مجلته وسلمها لصاحب الدكان بعد أن نقده مقداراً من المال . وسلك الشارع المؤدى إلى «ميدان الشرطة» فتبعته عن قرب والخوف والوجل يشداني إلى الوراء في حين تدفعني رغبة عارضة إلى الأمام . انتهى به السير إلى الفسحة الممتدة أمام سوق البقالين فعرج على ناصية الشارع المجاورة لمركز الشرطة وجلس إلى نفر من الحمالين الذين اعتادوا أن يتخذوا تلك الناحية مركزاً . وتوقفت بالقرب من دكان بقال بجانب الناصية متظاهرة بالرغبة في الشراء بينما انطلقت عيناى تدوران في المكان . وناوله أحد الجالسين عدة العمل وسأله : «ألم ترها؟؟» فهز رأسه في خيبة ومرارة دون أن ينطق حرفاً . فاندفع آخر ذو أنف مفقوف كمنقار البومة وبنيان متين كالفيل يقهقه في سخرية لاذعة ، فسأله في خشونة وهو مقطب الجبين : علام تضحك ؟ !

فأجابه ذو الأنف المفقوف في استخفاف : على جنونك يا حسن . ألا يدعو حالك إلى الضحك ؟! أية ساعة نلقاك تجدك عابس الوجه مكتئب القسمات برم بالحياة ، لماذا ؟! لأنك تحب تلك الفتاة .. !

فسأله بصوت أجش : وماذا في ذلك ؟ ! أليس من حق أن أحب ؟ ! ألم يخلقني الله كما خلق أولئك الشبان المأنقين الذين يحل لهم الحب ؟ ! كلا هنالك من فرق بيننا أن الله رماني في أحضان أب معدم فاضطررت أن أشتغل حمالا لأكسب لقمة العيش ، بينما خص أولئك الشبان بآباء أثرياء يرسلونهم إلى المدارس ويكسونهم بالحلل الغالية .. وإن لله حكمة في خلقه !

فهتف ذو الأنف المفقوف بلهجة ساخرة : كن تقلعنا وكفرا فنحن نعترف أن من حقك أن تحب ، بل وتحب تلميذة جميلة من بنات الأثرياء ! ولكن ، أتظن يا قيس أن ليلاك ستتنازل يوماً وتجود عليك بنظرة أو ابتسامة ؟ !

فقاطعه في انفعال : إسمع يا جاسم . لا تتدخل في شئوني . أنا أدرى منك بما أفعله .

فاستطرد ذو الأنف المفقوف يقول في تهكم : طبعاً أنت أدرى بشئونك ... لذلك أحببت تلك الفتاة ! ... حمال يحب فتاة مثقفة غنية ... !

وسكت برهة ثم صاح في هزء كمن تذكر أمراً : اسمع يا قيس ، إنني مستعد لمراهنتك على أن ليلاك قد اختارت لها صديقاً من طلاب المدارس كما هو شأن معظم التلميذات .

وكنت أترقب النقاش بنفس متوثبة وقلب سريع الخفقان ، تتملكني الغيظ حين نطق ذو الأنف المفقوف بعبارته الأخيرة ، ولكن سرعان ما اهتزت جوانب نفسي بسرور عظيم عندما شاهدت حسن يقفز إليه في جنون ويمسك بخناقه وهو يصرخ هائجاً : لا تدنس اسم هذه الفتاة بلسانك القذر ... لا تدنسه ... لا تدنسه ...

فسدد إليه ذو الأنف المفقوف لكمة ألقته على الأرض ، واشتبك الإثنان في معركة حامية في حين بدأ الناس يتجمعون حولها وهم يحاولون فض المعركة ، فانسللت في طريق ونفسي نهب لعواطف الخوف والألم والإشفاق .

* * *

أقبل الليل ..

وجلست إلى كتبي لمذاكرة دروسي . عبثاً أن أفهم شيئاً وذهني يعج بهذه الصور . مراجعه الحزينة تخترق صفوفنا في ملل .. عيناه المتفجرتان أسى تتصفحان وجوه الطالبات في لهفة وإعياء .. ذو الأنف المفقوف وضحكاته الساخرة الكريهة .. المعركة العنيفة التي اشتبك فيها الإثنان ! ويئست من استيعاب صفحة مما أقرأه فأطبقت الكتاب في ضيق وقت إلى سريرى .

اضطرب نومي بأحلام صاخبة اتصلت بين اليقظة والرقاد . وكان حسن محور تلك الأحلام تارة أراه في صورة كريهة تثير في نفسي الحنق والاشمئزاز ، ويهم بالقبض على ذراعي فأنفلت من يديه مذعورة ، وأركض أمامه خائفة وجلة وهو يعدو ورائي وزميلاتي يقفن على طول الطريق وهن يرمقنني بنظرات ساخرة ويقهقهن هازئات . وطوراً يتمثل لي شاباً أنيقاً يرتدي السترة والبنطلون ، ويغادر مدرسة البنين الثانوية المجاورة لمدرستنا في موكب من رفاقه المأنقين ، وهو يسير بينهم رافع الرأس شامخ الأنف ، وإذ بالقرب منه أنا وزميلتي إحسان ، فيلتفت إلي في اهتمام ويستقبلني بنظرات تفيض بالهيام . فتثير تلك النظرات في نفسي أعذب المشاعر وأحلى الأحاسيس . وحيناً أراني واقفة في أرض خضراء واسعة أتطلع إلى الأفق البعيد ، وفجأة يبرز لي وهو يمتطي صهوة جواد جميل ، فينتشلني من الأرض ويردفني وراءه ، ثم ينطلق بنا الجواد خبباً ونفسي تهتز نشوة وطرباً .

واستيقظت في الصباح متأخرة عن ميقات يقظتي اليومي . الصداع يلهب رأسي والضيق يكاد يكتم أنفاسي . وتناولت فطوري في غير شهية ، وقصدت المدرسة وأنا منقبضة النفس حزينة الشاعر. تلقيت الدروس ضجرة متبرمة ، ولما دق جرس الدرس الأخير زايلني بعض ما أحسه من ضيق وانقباض ، وبادرت إلى الخروج وأنا أتوقع أن أرى حسن فوق دراجته يخترق الصفوف ، ولم يكن ليزعجني التوقع تلك اللحظة ، بل أحسست نحوه بشيء من الرضا والاطمئنان . ولشد ما ذهلت حين تمامت معظم الشارع دون أن يبدو له أثر . واستولى على استغراب شديد مازجه شعور بالاستياء والقلق ، وظللت سائرة في خطى مضطربة وأنا أتلفت حول طول الطريق ، متوهمة في كل صوت عجلة تدرج ورائي . وأكسبت أذناي في تلك الدقائق قوة مدهشة ، فكنت أنتبه إلى أدق صوت ، بل لعلني كنت أتخيل سماع بعض أصوات وهمية . ومع ذلك فقد بلغت الدار دون أن يلوح لمراجته ظل ... !

انتظرت فترة العصر في لهفة لاتطاق . وكنت خلال ساعات الدرس أحدق في ساعة معصمي بين لحظة وأخرى متأففة متململة كأنني أستحث عقاربها على الإسراع . وما أن طرق سمعي رنين الجرس حتى تقزت نحو باب الصف في رعونة أثارت استغراب معلمة التاريخ التي تمهد في الرزانة والتعقل ، لكنني لم أعبأ بدهشتها ، وهرعت إلى الشارع وعيناي تكادان تسبقان جسمي إليه . وسرعان ما اجتاحتني موجة عارمة من الشاعر زاخرة بالمرارة والامتعاض والخذلان حينما ألفيت الشارع خالياً من دراجته ، وصاحبتني تلك الشاعر الخانقة طيلة اليوم .

* * *

مضى أسبوع دون أن يبدو لحسن أثر : وكنت أثناء أيام الأسبوع أتوقع رؤيته في شغف كلما غادرت المدرسة في فرصة الصباح والمساء ، وما أن يخيب ظني حتى يعتلا كياني بأحاسيس يمتزج فيها الضيق بالأسى والثورة بالحنق . وتصارعت الأفكار والهواجس في رأسي كل منها يعزو غيابه إلى سبب . وكنت أجزم أحياناً بأنه في السجن يتحمل عقوبة العركة . ثم أعود حيناً آخر فأعتقد أنه في المستشفى يداوي الجراح التي ألحقتها به المعركة . وحيناً ثالثاً أنقض ذينك الخاطرين وبمجزني ارتباك الخيال عن افتراض سبب معين !

وفي الليالي الثلاث الأخيرة من الأسبوع لفت نظري ظاهرة جديدة تحت نافذتي . فمن عادتي أن أفتح نافذة غرفتي المطلة على شارع عرضي وأمد رأسي في الفضاء بضع دقائق لأملأ رئتي من هواء الليل العذب قبل أن أتهيأ للرقاد وبعد أن أفرغ من استذكار دروسي . فكان نظري يقع على شبح شخص يتحرك تحت النافذة في تسكع . وبما أن مصباح الشارع الكهربائي بعيد عن دارنا فإن الظلام يغمر هذه البقعة فلا يسعني أن أميز شكل من يدخل في نطاقها . وظننت للمرة الأولى والثانية والثالثة أن هذا الشخص عابر سبيل . لكنني ما عتمت أن أيقنت أن تسكعه تحت نافذتي عن قصد وتعمد . وما أن رسخ في ذهني هذا الاعتقاد حتى أصبت بنوع من الهوس ، فكنت أطل على الطريق في الليالي الأخيرة بين ساعة وأخرى فألحظه يتحرك تحت النافذة في نفس الموضع . وكان يتوارى عن أنظاري كلما أبرزت رأسي . وعجبت لحاله ... من يكون ؟ ! وماذا يعني سهره تحت النافذة ؟ ! ولماذا يحاول الاختفاء عن عيني ؟ !

ولطالما ارتددت عن النافذة وتحولت إلى المرآة أعلق فيها مفاتني ... لاشك أنني رائعة الجمال ... عينان سوداوان واسعتان . أنف صغير جميل . شعر أسود وحف ينسدل على كتفي كالحرير . قامة شامخة مترية بخصرها الدقيق وصدرها الناهد . ثم هذه النقرة الطينة التي تبدو في وجنتي كلما افترت شفتاي عن ابتسامة صغيرة وصحيح أنني سمراء ، لكن لوني خمري كما يقول الشعراء .

وكانت تلك الأفكار تبعث في قلبي نشوة هادئة ، لكنها لم تكن لتصرفني عن أمر هذا العاشق الجديد . فكنت أنفق الساعات وأنا أتقد تصرفاته . وكنت أحدس أحياناً كثيرة أنه حسن نفسه . لكن ميلي إلى الاعتقاد أنه إما أن يكون طريح المستشفى أو يكون السجن كان يضعف هذا الحدس .

مرت أيام ستة على العاشق الجديد وهو مقيم على عهده ، يروح ويجيء تحت نافذتي كل مساء . وبينما كنت عائدة من المدرسة عصر اليوم السابع اعترض نظري — على سبيل المصادفة — إلى

عطفة مهملة بالقرب من المنزل كنت أرفع البرقع في العادة حين أجاوزها ، وإذا بي ألمح حسن قابعاً فيها . وخفق قلبي في شدة وعنف ، وساد الارتباك مشاعري واضطربت حركاتي ، فحولت عنه عيني سريعاً ، وأوسعت خطواتي حتى كدت أهرول . ولما بلغت الدار ارتقيت السلالم وثباً واتجهت إلى مخدعي من فوري واستلقيت على الفراش وأحاسيس النشوة والفرح تجيش في صدري .

وخُيّل لي شبح العاشق الجديد وهو يخطو تحت النافذة في تلكؤ ، فوجدتني أجزم بأنه حسن نفسه ... حسن نفسه بقامته الفارعة وكتفيه العريضين وملامحه القوية الصارمة ، وإن له قامة حسن الطويلة النبيلة وإن لم تبن قسمات وجهه .

وما أن أسدل الظلام أستاره حتى هرعت إلى النافذة فرأيت الشبح يتحرك بعيداً مختفياً عن أنظاري ، فارتددت عن النافذة .

وتهافتُّ على المقعد صامتة . لكنني ما عتمت أن قفزت على قدمي وأنا أحس كأنني حبيسة وراء جدران ضخمة . وانطلقت أذرع أرض الغرفة بخطوات سريعة مضطربة وأنا أرزح تحت وطأة رغبة جارفة في الخروج إلى الشارع . وضجت بتلك الرغبة مشاعري واختنق صدري بصراخها فأدركت أنني أقاومها عبثاً . وارتديت ملابسي على عجل . واستأذنت أمي في زيارة زميلة لغرض يتعلق بالواجب المدرسي . ورددت باب الدار خلفي وقلبي يسرع في دقاته وأعصابي ثائرة ونفسي متوثبة ، وانطلقت وراء المنزل وسلكت رأس الشارع الثاني ، ثم ظهرت أمام العاشق الجديد فجأة بحركة مباغتة . كان حسن نفسه بلحمه ودمه وهو منكمش تحت النافذة . ورفعت البرقع عن وجهي وأنا مفترة الثغر عن بسمة رقيقة ، ولبثت بضع لحظات أحدق في وجهه بنظرات تنبض بالعطف والإغراء وانتابته حالة من الذهول الشديد ، فجمد في موضعه وهو متسع العينين دهشة ، فاغر الفم في بلاهة وتبلد كمن لا يفهم لما يراه معنى . ثم واصلت سيري بخطوات متمهلة وأنا ألتفت ورائي بين لحظة وأخرى كأنني أدعوه إلى تعقبي . وابتعدت عنه وهو ثابت في وقفته كالتمثال ، وكدت أيأس من استجابته للفتاتي ثم رأيته يتحرك فجأة في ذهول كأنه واقع تحت سلطان قوة خفية . وغاب دارنا عن أنظاري بين المنعطفات التي اجتزتها ، ودخلت دربا يكاد يكون مقفراً من السابلة ، وحسن لا يزال يتبعني بخطوات بطيئة مترددة ، وكلما ازداد اقترابه مني اشتدت ضربات قلبي واندفع الدم في شراييني حاراً لاهباً وتغمرت في أعماقي لذة مبهمة.

ودنوت من منعطف يؤدي إلى شارع عام فتوقفت عن السير ، ودرت على أعقابي بحركة بطيئة وانتصبت أمامه وجها لوجه وعلى ثغري ابتسامة رقيقة . كنت أشعر تلك اللحظة أن رأسي قد التهب وجسمي قد تخدر وأخذ يرتعش تحت وطأة تيارات غريبة كمن مس الكهرباء . أما هو فوقف صامتاً وكل جزء من أجزاء وجهه يعكس عواطف قلبه المصطخبة . ومرت لحظة صمت ، ثم همهم بصوت مرتعش وشفتين مرتجفتين : « أنا عبدك » .

لا أدرى ماذا حدث لي تلك اللحظة ، ولكنني أذكر أنني لمحت عابراً ينعطف من الشارع ويدخل الطريق ، فاندفعت أصيح بحركة لا إرادية : « أنقذوني .. أنقذوني » . فهرع إلي وهو يردد باهتمام : « ماذا بك يا آنسة !! ... ماذا بك يا آنسة ؟! » فأجبته بلسان متلعثم وأنا أشير إلى حسن : « إنه حاول تقبيلي » . فتحول إليه مزمجراً ، وراح يهدده بالويل إن لم يدعني وشأني .

ولن تمحى صورة حسن الذاهلة من ذاكرتي أبداً . فقد تحجر في موضعه ، وراح ينقل أنظاره بيني وبين عابر في فزع كأنه تحت رحمة كابوس مخيف . ولم ينطق كلمة واحدة ، بل ألقى علي نظرة تدفق ألما ومرارة وتعاسة ، ثم ولى يخطو في تخاذل كأنه يرزح تحت حمل ثقيل ، والتفت إلى عابر وقال بأدب : « لا أظنه سيضايقك مرة أخرى أيها الآنسة .. ليلتك سعيدة » . ووقف ينظر إلي برهة كأنه ينتظر أن أقدم له شكري ، لكن لساني انعقد من الكلام وخوى رأسي من الأفكار . فهز كتفيه وسار في طريقه . وأردت أن أستوقفه لأقول له شيئا ، لكن قوة طاغية جذبت رأسي إلى الجهة التي سلكها حسن ، فأتبعه بأنظاري وأنا أحس أنني سأنفجر من شدة الغم والألم والضيق . ثم ارتد إلي طرفي مبللا بالدمع حيثما تلاشى شبحه في النور الخافت .

القاهرة — شاكر خصباك

سكك حديد الحكومة المصرية

صرف تذاكر مشتركة إلى الوجه القبلي بأجور مخفضة للسفر بها بالسكك الحديدية والمبيت في عربات النوم والإقامة في الفنادق

يتشرف المدير العام بإعلان الجمهور مرة أخرى أنه بموجب اتفاق مع شركة فنادق الوجه القبلي والفنادق الأخرى وشركة عربات النوم قد تقرر إعادة صرف التذاكر المشتركة بمعرفة مصلحة السكك الحديدية للحكومة المصرية ابتداء من أول أكتوبر سنة ١٩٤٩ لغاية ٣١ مارس سنة ١٩٥٠ بأجور مخفضة للسفر بالسكك الحديدية والمبيت في عربات النوم للدرجة الأولى فقط والإقامة في الفنادق .

وتشمل هذه التذاكر الإقامة في الفنادق المبينة بعد :

إسم الفندق	درجة الفندق	الأجرة عن ٥ أيام و ٤ ليال من القاهرة: جنيه	ملیم
فندق ونتر بالاس بالأقصر	درجة أولى ممتازة	١٦	٩٣٠
فندق كاتاركت بأسوان	» » »	١٩	١٢٠
الأقصر بالأقصر	درجة أولى والسفر بالدرجة الأولى	١٥	٠٨٠
	» » » » الثانية	٩	٣٢٥
فندق جراند أوتيل بأسوان	درجة أولى والسفر بالدرجة الأولى	١٧	٢٧٠
	» » » » الثانية	١٠	٠٩٠
فندق سافوى بالأقصر	درجة ثانية ممتازة والسفر بالدرجة الأولى	١٤	٢٠٠
	» » » » » الثانية	٠٨	٤٤٥
فندق الثالات بالأقصر	درجة ثانية والسفر بالدرجة الأولى	١٢	١١٠
	» » » » الثانية	٦	٣٥٥
فندق المحطة بالأقصر	درجة ثانية والسفر بالدرجة الأولى	١٢	١١٠
	» » » » الثانية	٦	٣٥٥

مطبعة الرسالة